ابن طفيل

ورسالته الفلسفية «حي بن يقظان» والكتب الطوباوية

د. عبد الكريم اليافي

إذا أتيح للمرء أن يزور اسبانيا ويطوف في ربوع الأندلس يسترعي انتباهه أشياء كثيرة ٠منها هذا التشابه الكبير بين سكانها على الضفة الغربية من البحر المتوسط وسكان بلادنا على ضفته الشرقية في الشكل والطباع وفي هذه البشاشة العذبة المترقرقة على الوجوه والنظرة المتفهمة الحلوة في العيون والابتسامة المتمعة على الشفاه ٠ هذا عدا التشابه في جودة الاقليم وجمال الطبيعة واشتباك الروابي والجبال والسهول المكسوة بالكروم وأشجار الزيتون والبرتقال والرمان والبيوت التي تنتصب فيها عرائش الياسمين والفل والنسرين حتى يكاد العربي الشامي يحسب نفسه بين أهله وذويه لولا اختلاف اللسان ٠

ولكنه حين يؤم بعض الآثار العربية الباقية الآبدة ينسى هنالك الحاضر كله ويعيش مدة في جو من الأحلام الحلوة الماضية ٠ بل ينسى الزمان قاطبة أمام روعة الفن العظيم في جامع قرطبة ولا سيما الزخرفة العجيبة في محرابه ، وتلقاء الهندسة البارعة في منارة اشبيلية ، وازاء الصنعة البديعة الفائقة في قصور الحمراء بغرناطة ٠ تلك الآثار الفنية الرائعة كافحت الحروب والفتن وصروف الزمان في الأحقاب المتطاولة وما زالت تنتصب لساناً ناطقاً بعظمة الحضارة البديعة التي تعالت أركانها وتألقت أنوارها في الأندلس ٠

بيد أن العربي وهو يتأمل مجالي الفن هنالك لا يلبث أن يتجاوز تلك الآثار الشاخصة فيتذكر الآثار الفكرية والأدبية الكثيرة التي هي من ثمرات تلك الحضارة والتي لا تقل روعة وعظمة وعلواً وابداعاً عن شأو فن العمارة والزخرفة ٠

يطوف العربي حول تلك الأركان وتطوف في سماء فكره ألوف من أسماء الفلاسفة والمفكرين والعلماء والشعراء والأدباء والفنانين والزجالين والمبرزين في كل ميدان • هؤلاء الذين كانوا فضلاً عن عبقرياتهم سبباً كبيراً من أسباب وصول الحضارة العربية الاسلامية الى أوربة وبزوغ شمسها عليها من المغرب بعد بزوغها من المشرق •

ولا شك أن الفيلسوف العربي أبا بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل القيسي الذي عاش في القرن السادس الهجري أو الثاني عشر الميلادي يأتي في طلائع أولئك المفكرين الفلاسفة • وإذا كان لمكان الولادة من أثر في اعتدال المزاج ورقته وصفاء الفكر فمن المناسب أن نذكر أن ابن طفيل ولد في وادي أش قريباً من غرناطة • ويقال أش بفتح الهمزة والشين مخففة وربما مدت الهمزة وهي مدينة كثيرة المياه ينحط نهرها من جبل الثلج وهو شرقيها وهي على ضفته، كثيرة الفاكهة كالتوت والأعناب والزيتون وغيرها كما تنمو حولها أشجار الشاهبلوط، وقد يطلق وادي أش على المدينة وعلى ما يجاورها من غياض وبساتين • نهرها ماؤه النقي ألذّ على الظمأ من السلافة للنديم وحصاه لؤلؤ وفيروز ومرجان ترتاع الصبايا الغرائر عند تلمحها إذ يتوهمن أن عقودهن انفرطت فيتلمّسن نحورهن كما وصفت الشاعرة الأندلسية حمدة بنت زياد ذلك الوادي الوارف حين كانت تختلف إليه وقد تستحم في غدرانه هي ورفيقاتها • وذلك في الأبيات الرشيقة الرقيقة المنسوبة اليها والتي يحلو دائماً ترديدها :

وقانا لفحة الرمضاء واد	**سقاه مضاعف الغيث العميم**
نزلنا دوحه فحنا علينا	**حنوّ المرضعات على الفطيم**
وأرشفنا على ظمأ زلالاً	**ألذ من المدامة للنديم**
تروع حصاه حالية العذارى	**فتلمس جانب العقد النظيم**
يصدُّ الشمس أنى واجهتنا	**فيحجبها ويأذن للنسيم**

ولد ابن الطفيل في إحدى السنوات العشر من (٤٩٥ هـ ـ ١١٠١ م) الى (٥٠٥ هـ ـ ١١١١ م ؟) وتوفي في نحو الثمانين من العمر (٥٨١ هـ ـ ١١٨٥م)• ونشأ محباً للعلم والثقافة فدرس اللغة والأدب والشعر والفقه وبقية العلوم



الدينية كما درس العلوم العقلية واشتهر خاصة بالطب والرياضيات والفلك والموسيقى والفلسفة وتأثر ببحوث أبي بكر بن الصائغ المعروف بابن باجه معاصره وإن لم يلق شخصه كما تأثر بأمثال ابن باجه من فلاسفة المغرب والمشرق • وألف بعض الرسائل الفلكية والفلسفية ولكن الزمان والفتن أتت عليها ما عدا واحدة منها تبوأت مكانة كبيرة في عالم الفكر وكان لها أثر عميق في قرّائها بأصلها العربي أو بترجماتها المتعددة ، وهي رسالة « حي بن يقظان » التي هي موضوع هذا البحث • كذلك قرض الشعر وقد وصلنا من شعره القطع الصغيرة التي تنمّ على تمكن من النظم وعلى سليقة طبيعية طيبة وعلى اتجاه فلسفي وروحيّ عميقين •

ومن شعره هذه القطعة الرقيقة المؤثرة الموجهة :

يا باكياً فرقة الأحباب عن شحط — هلا بكيت فراق الروح للبدن
نور تردد في طين الى أجل — فانحاز عُلْواً وخلّى الطين للكفن
يا شَدَّ ما افترقا من بعد ما اعتلقا — أظنها هدنة كانت على دَخَن
ان لم يكن في رضا الله اجتماعهما — فيالها صفقة تمت على غَبَن

وقد نبه أمره وعلا شأنه في عهد دولة الموحدين التي أطلقت حرية الفكر وشجعت البحوث الفلسفية الى أن صار طبيب الأمير يوسف أبي يعقوب بن عبد المؤمن ونديمه ووزيره • رأس هذا الأمير دولة الموحدين بين ٥٥٨ هـ ــ ١١٦٣ و ٥٨٠ هـ ــ ١١٨٤ م • وكان ابن طفيل في سن الستين من عمره أو تجاوزها ، وقد اكتمل معرفة وحكمة • وهكذا نجد أن الحكم هذه المرة يمد يده الى الحكمة فيتعاونان ويتشاوران • وما أصوب اللغة العربية حين اشتقت الحكم والحكمة من أصل واحد • بل الحكم في الأصل الأول معناه الحكمة • ومن الطبيعي أن يقرب ذلك الأمير رجل عصره في الطب والفلسفة فلقد كان له ولع بتقريب أهل العلم وبجمع الكتب المتنوعة •

ذكر عبد الواحد المراكشي عنه في كتابه « المعجب في أخبار المغرب » أنه لم يزل يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب ويبحث عن العلماء وخاصة أهل علم النظر الى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك المغرب •

وكان ابن طفيل مثل مليكه في محبة المفكرين والعلماء والفلاسفة وتقريبهم من القصر والعناية بهم • كان من جملة من قربهم من الأمير وعرّفه بفضلهم ومواهبهم الفيلسوف الكبير القاضي ابن رشد (١١٢٦/٥٢٠ ـ ١١٩٨/٥٩٤) •

قال عبد الواحد المراكشي في كتابه « المعجب » عند كلامه على ابن طفيل متحدثاً عن علاقته بالملك الموحدي : « ولم يزل أبو بكر هذا يجلب إليه العلماء من جميع الأقطار وينبهه عليهم ويحضه على إكرامهم والتنويه بهم • وهو الذي نبه على أبي الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد • فمن حينئذ عرفوه ونَبُهَ قدره عندهم » •

تقريب ملك الموحدين لابن رشد مهم جداً في تاريخ الفلسفة الانسانية وفي تاريخ انتقال الحضارة الى أوربة • فلا بأس في أن نقف بعض الشيء عند هذه المرحلة ذات الشأن والخطورة ، ولا بأس في أن نتبين مكانة ابن رشد فيها • نتابع المراكشي ينقل كلام تلميذ ابن رشد أبي بكر بندود بن يحيى القرطبي واصفاً لقاء أستاذه لأمير الموحدين • وكان هؤلاء يطلقون على ملوكهم لقب أمير المؤمنين : « قال : سمعت الحكيم أبا الوليد يقول غير مرة : لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب وجدته هو وأبا بكر بن طفيل ليس معهما غيرهما • فأخذ أبو بكر يثني عليّ ويذكر بيتي وسلفي ، ويضم بفضله الى ذلك أشياء لم يبلغها قدري • فكان أول ما فاتحني به أمير المؤمنين بعد أن سألني عن اسمي واسم أبي ونسبي أن قال لي : ما رأيهم في السماء ـ يعني الفلاسفة ـ أقديمة هي أم حادثة ؟ فأدركني الحياء والخوف • فأخذت أتعلل وأنكر اشتغالي بعلم الفلسفة • ولم أكن أدري ما قرّر معه ابن طفيل • ففهم أمير المؤمنين مني الرَّوْعَ والحياء • فالتفت الى ابن طفيل وجعل يتكلم على المسألة التي سألني عنها ، ويذكر ما قاله أرسطو طاليس وأفلاطون وجميع الفلاسفة ، ويورد احتجاج أهل الاسلام عليهم • فرأيت منه غزارة حفظ لم أظنها في أحد من المشتغلين في هذا الشأن المتفرغين له • ولم يزل يبسطني حتى تكلمت ، فعرف ما عندي من ذلك • فلما انصرفت أمر لي بمال وخلعة سنية ومركب • »

ويضيف المراكشي أيضاً :

« وأخبرني تلميذه المتقدم الذكر عنه قال : استدعاني أبو بكر بن طفيل

يوماً فقال لي : سمعت اليوم أمير المؤمنين يتشكى من قلق عبارة أرسطو طاليس أو عبارة المترجمين عنه ، ويذكر غموض أغراضه ، ويقول : لو وقع لهذه الكتب من يلخصها ويقرّب أغراضها بعد أن يفهمها فهماً جيداً لَقرُبَ مأخذها على الناس • فان كان فيك فضل قوة لذلك فافعل • وإني لأرجو أن تفي به لما أعلمه من جودة ذهنك وصفاء قريحتك وقوة نزوعك الى الصناعة • وما يمنعني من ذلك إلا ما تعلمه من كَبرة سني واشتغالي بالخدمة وصرف عنايتي الى ما هو أهم عندي منه • قال أبو الوليد : فكان هذا الذي حملني على تلخيص ما لخصته من كتب الحكيم أرسطو طاليس • »

كان ابن رشد في الثامنة والثلاثين لما بويع أبو يعقوب يوسف الأول ، أي في تمام القوة والتبحر في العلوم وتحفّز الفكر • قد ألف كتاب «الكليات في الطب» الى جانب علومه الواسعة في اللغة والفقه والحديث وعلم الكلام والفلسفة • فلما عهد ملك الموحدين اليه في تفسير كتب أرسطو المعلم الأول وتلخيصها وشرحها أقبل عليها وهو الكفيّ القدير على ذلك. وهكذا كانت رغبة الملك في الازدياد من العلم هي التي حملت أبا الوليد على تلخيص ما لخص وشرح ما شرح من كتب الحكيم اليوناني كما روى هو عن نفسه •

ولما عكف ابن رشد على تلخيص كتب أرسطو المترجمة وجد أن آراءه قد امتزجت بغيرها مما جاء في الفلسفة الأفلاطونية والفلسفة الأفلاطونية الحديثة أو في شروح أرسطو نفسه • لذلك عمد الى تجريد أقواله تجريداً دقيقاً والى شرحها فكان أكبر الشراح فهماً لأرسطو وايضاحاً لآرائه • وشروحه هذه ثلاثة أنواع : فهي اما جوامع واما تلخيصات واما شروح مطولة • في الجوامع يهمل النص ويعرض موضوع الكتاب وبحوثه • وفي التلخيصات يورد النص الأصلي بشكل واضح ويعرض آراء المفسرين ويناقش ويرجح. وفي الشروح المطولة يورد النص الأصلي مستقلاً ثم يفسره ويعلق عليه ويناقش المسائل التي يثيرها النص ، ويعرض فيها رأيه الخاص • وقد ترك في ثنايا شروحه نظاماً عقلياً متماسكاً هو الفلسفة الرشدية ، لها خصائصها ، تقف الى جانب الفلسفة الأرسطوطاليسية وتشدّ أزرها • ونظراً لهذه الشروح الدقيقة دعي ابن رشد بالشارح وأحياناً بالشارح الكبير •

أشد ما تتسم به فلسفة ابن رشد اتجاهها العقلي · وقد ترجم أكثر كتبه الى اللاتينية · بدأت ترجمتها منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادي · فانتقلت آراؤه الى الغرب وفهمها الذين ينشدون العلم والفلسفة كل حسب استيعابه وميوله · فنشأ في ذلك الوقت تيارات فكرية وسميت بالرشدية اللاتينية · وهي وان انتسبت الى ابن رشد لم تكن التعبير الدقيق عن آرائه · بيد أنها تدخل في نطاق الفلسفة الأرسطوطاليسية · وكان الغرب في حاجة اليها لاتجاهها العقلي فأفاد منها الكثير من علماء ومفكرين · بل انتحلوا قسماً منها. وكان لها أثر عميق في يقظة الغرب كما كانت حافزاً على البحث والتمسك بالبرهان · يضاف اليها طرائق الملاحظة والاستقراء والقياس والتجريب التي امتازت بها الحضارة العربية الاسلامية ·

* * *

ويطيب لنا الآن أن نلخص قصة حي بن يقظان ثم نعلق عليها تعليقات مناسبة. ونحافظ في التلخيص على أكثر عبارات المؤلف ·

* * *

حي بن يقظان انسان تكوّن أو نشأ في جزيرة من جزائر الهند التي تحت خط الاستواء · في تكونه ونشوئه روايتان :

الأولى أنه ولد من غير أب ولا أم · وذلك « أن بطناً من أرض تلك الجزيرة تخمرت فيه طينة على مر السنين حتى امتزج فيها الحار بالبارد والرطب باليابس امتزاج تكافؤ وتعادل في القوى . وكانت هذه الطينة المتخمرة كبيرة جداً · وكان بعضها يفضل بعضاً في اعتدال المزاج والتهيؤ لتكوّن الأمشاج · وكان الوسط منها أعدل ما فيها وأتمه مشابهة بمزاج الانسان · فتمخضت تلك الطينة وحدث فيها شبه نفاخات الغليان لشدة لزوجتها ، وحدث في الوسط منها نفاخة صغيرة جداً منقسمة بقسمين بينهما حجاب رقيق ممتلئة بجسم لطيف هوائي في غاية من الاعتدال اللائق به · فتعلق به عند ذلك الروح الذي هو من أمر الله وتشبث به تشبثاً يعسر انفصاله عنه عند الحس وعند العقل ، اذ قد تبين أن هذا الروح دائم الفيضان من عند الله عز وجل وأنه بمنزلة نور الشمس الذي هو دائم



الفيضان على العالم ... فلما تعلق هذا الروح بتلك القرارة خضعت له جميع القوى وسجدت له بأمر الله في كمالها • فتكوّن بازاء تلك القرارة نفاخة أخرى منقسمة الى ثلاث قرارات بينها حجب لطيفة ومسالك نافذة وامتلأت بمثل ذلك الهوائي الذي امتلأت منه القرارة الأولى إلا أنه ألطف منه ... وتكون بازاء هذه القرارة من الجهة المقابلة للقرارة الثانية نفاخة ثالثة مملوءة جسماً هوائياً إلا أنه أغلظ من الأولين وسكن في هذه القرارة فريق من تلك القوى الخاضعة وتوكلت بحفظها والقيام عليها فكانت هذه القرارات الأولى والثانية والثالثة أول ما تخلّق من تلك الطينة المتخمرة على الترتيب الذي ذكرناه » •

يشرح ابن طفيل في هذا النص نشوء المضغة وتخلّقها ويستمر في بيان تكوّن مختلف الأعضاء من قلب ودماغ وكبد متضامناً بعضها مع بعض بحيث يتكفل القلب بالحرارة والدماغ بالحس والكبد بالغذاء • وانما حصل هذا التضامن بنشوء مسالك وطرق بعضهما أوسع من بعض بحسب ما تدعو اليه الضرورة فكانت الشرايين والعروق وارتبط بعض الأعضاء ببعض على شكل مراتب من رئيس ومرؤوس •

ولما كمل خلق هذا الكائن على حسب ما وصف الطبيعيون خلقة الجنين في الرحم وتمّت أعضاؤه وصار في حد خروج الجنين من البطن بعد أن جللته أغشية انشقت تلك الأغشية بشبه المخاض وتصدع باقي الطينة إذ كان لحقه الجفاف • « ثم استغاث ذلك الطفل عند فناء مادة غذائه واشتداد جوعه فلبته ظبية فقدت طلاها » •

نلاحظ في هذا الوصف كيفية نشوء الحياة الانسانية على وجه الأرض وهي تعاون ما كانوا يسمونه الأركان الأربعة وهو امتزاج الحار (النار) والبارد (الهواء) والرطب (الماء) واليابس (التراب) في سبيل اعتدال المزاج والتهيؤ لتكون الأمشاج كما يتصور الأطباء الطبيعيون القدماء ، ثم اتصل الروح كشعاع الشمس الفائض بذلك المزاج وتلك الأمشاج • وعند هذا الاتصال والتعلق استجابت جميع القوى التي سلف ذكرها وخضعت للروح وكأن تلك القوى كانت بمنزلة الملائكة التي سجدت لأبينا آدم •

الرواية الثانية في ولادة حي بن يقظان أنه « كان بازاء تلك الجزيرة جزيرة عظيمة متسعة الأكناف كثيرة الفوائد عامرة بالناس يملكها رجل منهم شديد الأنفة والغيرة . وكانت له أخت ذات جمال وحسن باهر فعضلها ومنعها الأزواج إذ لم يجد لها كفواً . وكان له قريب يسمى يقظان فتزوجها سراً على وجه جائز في مذهبهم المشهور في زمنهم ، ثم إنها حملت منه ووضعت طفلاً . فلما خافت أن يفتضح أمرها وينكشف سرها وضعته في تابوت أحكمت زمّه بعد أن أروته من الرضاع وخرجت به في أول الليل في جملة من خدمها وثقاتها الى ساحل البحر وقلبها يحترق صبابة به وخوفاً عليه ثم إنها ودّعته ... ثم قذفت به في اليم فصادف ذلك جري الماء بقوة المد فاحتملته من ليلته الى ساحل الجزيرة الأخرى ...

فأدخله الماء بقوته الى أجمة ملتفة الشجر عذبة التربة مستورة عن الرياح والمطر محجوبة عن الشمس تَزْوَرُّ عنها إذا طلعت وتميل إذا غربت . ثم أخذ الماء في النقص والجزر عن التابوت الذي فيه الطفل وبقي التابوت في ذلك الموضع ... فلما اشتد الجوع بذلك الطفل بكى واستغاث وعالج الحركة فوقع صوته في أذن ظبية فقدت طلاها ... فحنّت الظبية وحَنَتْ عليه ورئمت به وألقمته حلمتها وأروته لبناً سائغاً وما زالت تتعهده وتربيه وتدفع عنه الأذى » .

وإذا اختلفت الروايتان في نشأة حي فهما تتفقان بعد ذلك في معنى التربية وسيرورتها . ذلك أن الظبية التي تكفّلت به وافقت خصباً ومرعى أثيثاً فكثر لحمها ودرّ لبنها حتى قام بغذاء ذلك الطفل أحسن قيام وكانت معه لا تبعد عنه إلا لضرورة الرعي . وألف الطفل تلك الظبية التي كان بحيث إذا أبطأت اشتد بكاؤه فطارت إليه .

ولم يكن بتلك الجزيرة شيء من السباع العادية فتربى الطفل ونما واغتذى الى أن تم له حولان وتدرج في المشي وأثغر فكان يتبع تلك الظبية وكانت هي ترفق به وتحمله الى مواضع بها شجر مثمر فكانت تطعمه ماتساقط من ثمراتها الحلوة النضيجة ، وما كان منها صلب القشر كسرته له بطواحنها ، ومتى عاد الى اللبن أروته ، ومتى ظمىء الى الماء أرْوَته ، ومتى ضحا ظللته ، ومتى خصر أدفأته ، وإذا جن الليل صرفته الى مكانه الأول ، وجللته بنفسها وبريش كان هناك



مما ملىء به التابوت أولاً • وكانا في غدوهما ورواحهما قد ألفهما ربرب يسرح ويبيت معهما حيث مبيتهما •

وعلى تلك الحال حكى الطفل نغمة الظبية بل جاوزها الى حكاية جميع ما يسمعه من أصوات الطير والحيوان ولاسيما أصوات الظباء في الاستصراخ والاستئلاف والاستدعاء والاستدفاع فألفته الوحوش وألفها ولم تنكره ولا أنكرها • ومع ذلك كان يميل الى بعض منها دون بعض •

ورأى جميع الحيوانات كاسية بالوبر والشعر والريش كما رأى ما لها من العدو والبطش وما لها من القرون والأنياب والحوافر والمخالب ووجد نفسه عارياً عديم السلاح ضعيف العَدْوِ قليل البطش ففكر في ذلك وطال همه وهو قد قارب سبعة أعوام فاتخذ من أوراق الشجر العريضة ما يستر به بدنه وعمل من أغصان الشجر عِصِيّاً له هشّ بها على الوحوش المنازعة له ، فعلا بذلك قدره عند نفسه • ثم رأى أن ليديه فضلاً على أيديها إذ كان يتصرف بها كما يريد • ولقد صادف في بعض الأيام نسراً ميتاً فقطع جناحيه وذنبه صحاحاً كما هي وسلخ عنه سائر جلده وفصله على قطعتين ربط إحداهما على ظهره والأخرى على سرته وما تحتها وعلق الذنب من خلفه وعلق الجناحين على عضديه ، فأكسبه ذلك ستراً ودفئاً ومهابة في نفوس الوحوش •

ثم أسنّت الظبية وضعفت فكان يرتاد بها المراعي الخصبة ويجتني لها الثمرات الحلوة ويطعمها ، حتى أدركها الموت فسكنت حركاتها بالجملة وتعطلت أفعالها فجزع الصبي جزعاً شديداً وكادت نفسه تفيض أسفاً عليها •

كان يناديها بالصوت الذي اعتاد أن تجيبه عند سماعه ويصيح بأشد ما يقدر عليه فلا يرى حركة ولا تغييراً فشرع يستطلع سبب ما حصل ويبحث جميع أعضائها دون أن يرى آفة فيها الى أن اهتدى الى عضو في جانب الصدر ألا وهو القلب فنظر فلم ير فيه آفة ظاهرة ولكنه ألْفى فيه تجويفين أحدهما من الجهة اليمنى مملوء بعلق منعقد والآخر من الجهة اليسرى خال لا شيء فيه ، فحدس أن الساكن في ذلك البيت قد ارتحل قبل انهدامه وتركه وهو بحاله وتحقق أنه أحرى ألا يعود اليه ، وصار الجسد كله عنده خسيساً لا قدر له بالاضافة الى ذلك

الشيء الذي ارتحل عنه . وتشتت فكره في ذلك كله وعلم أن أمه التي عطفت عليه وأرضعته وتعهدته إنما كان ذلك الشيء المرتحل وأن الجسد بجملته كالآلة وبمنزلة العصي التي اتخذها هو لمآرب شتى . وفي خلال ذلك نتن ذلك الجسد وقامت منه روائح كريهة نفرته عنه . ثم سنح لنظره غرابان يقتتلان حتى صرع أحدهما الآخر ميتاً . ثم جعل الحي يبحث في الأرض حتى حفر حفرة وارى فيها ذلك الميت بالتراب. فحفر هو حفرة وألقى فيها جسد أمه وحثا عليها التراب .

وبقي على ذلك برهة يتصفح أنواع الحيوان والنبات ويطوف بساحل تلك الجزيرة فلم يجد لنفسه شبيهاً ووجد لكل واحد من أشخاص الحيوان والنبات أشباهاً كثيرة . وكان يرى البحر محدقاً بالجزيرة من كل جهة فظن أنه ليس في الوجود أرض سوى أرض جزيرته تلك ، واتفق أن انقدحت نار في أجمة قصب أجوف على سبيل المحاكّة فهاله منظرها . فوقف يتعجب فيها ملياً ثم دنا منها ومد يده فلما باشرها أحرقت يده ، فاهتدى الى أن يأخذ منها قبساً لم تستول النار على جميعه فأخذه بطرفه السليم وحمله الى موضعه الذي يأوي إليه وهو جحْر استحسنه للسكن قبل ذلك .

ثم ما زال يمد تلك النار بالحشيش والحطب ويتعهدها ليلاً ونهاراً . وكان يزيد أنسه بها ليلاً لأنها كانت تقوم له مقام الشمس في الضياء والدفء فعظم بها ولوعه واعتقد أنها أفضل الأشياء التي لديه ورآها تتحرك الى جهة فوق وتطلب العلو . وألقى فيها على سبيل الاختبار شيئاً من أصناف الحيوانات البحرية فسطع قتاره وحرك القتار شهوته اليه فأكل منه شيئاً استطابه فاعتاد بذلك أكل اللحم وصرّف الحيلة في صيد البر والبحر .

وزادت محبته للنار لما رأى من حسن آثارها وقوة اقتدارها . ثم وقع في نفسه أن الشيء الذي ارتحل من قلب أمه الظبية كان من جوهر هذا الموجود أو من شيء يجانسه ، وأكد ذلك في ظنه ما كان يراه من حرارة الحيوان الحي وما كان يجده من شدة الحرارة عند صدره بازاء الموضع الذي كان قد شق عليه من الظبية.

ثم دفعته الرغبة الى البحث عن سائر أعضاء الحيوان وترتيبها وأوضاعها وكمياتها وكيفية ارتباط بعضها ببعض وكيف تستمر لها الحياة من تلك الحرارة



التي في القلب فتتبّع ذلك كله بتشريح الحيوانات الأحياء والأموات · ولم يزل ينعم النظر فيها ويجيل الفكرة حتى بلغ في ذلك كله كبار الطبيعيين · فتبين له أن كل شخص من أشخاص الحيوان وان كان كثيراً بأعضائه وتفنن حواسه وحركاته فانه واحد بذلك الروح الذي مبدؤه من قرار واحد وانقسامه في سائر الأعضاء منبعث منه ، وأن جميع الأعضاء خادمة له أو مؤدية عنه · وهو يصرفها كأنها آلات أنحاءً من التصريف بحسب ما تصلح له كل آلة وبحسب الغايات التي تلتمس بذلك التصريف · فاذا عمل بآلة العين كان فعله ابصاراً ، واذا عمل بآلة الأذن كان فعله سمعاً ، واذا عمل بآلة الأنف كان فعله شماً ، واذا عمل بآلة اللسان كان فعله ذوقاً ، واذا عمل بالجلد واللحم كان فعله لمساً ، واذا عمل بالعضد كان فعله حركة ، واذا عمل بالكبد كان فعله غذاءً واغتذاءً · ولا يتم لشيء من هذه فعل الا بما يصل اليها من ذلك الروح على الطرق التي تسمى عصباً ، وتستمد الأعصاب الروح من بطون الدماغ ، والدماغ يستمد الروح من القلب · فان خرج الروح بجملته عن الجسد أو فني أو تحلل بوجه من الوجوه تعطل الجسد كله وصار الى حالة الموت · وقد انتهى حي الى هذا الحد من النظر على رأس أحد وعشرين عاماً من منشئه ·

وفي خلال هذه المدة تفنن في وجوه حيله واكتسى بجلود الحيوانات التي كان يشرحها واحتذى بها واتخذ الخيوط من الأشعار ولحاء القصب والخبازى والقنب وكل نبات ذي خيط ·

وكان بتلك الجزيرة خيل برية وحمر وحشية فاتخذ منها ما يصلح له وراضها حتى كمل بها غرضه ·

ثم بعد ذلك أخذ في مأخذ آخر من النظر فتصفح جميع الأجسام من الحيوان والنبات والمعادن وأصناف الحجارة والتراب والماء والبخار والثلج والبرد والدخان واللهيب والجمر فرأى لها أوصافاً كثيرة وأفعالا مختلفة وأنعم النظر في ذلك فكشف خصائصها وتعرف طبائعها فرأى حقيقة وجود كل منها مركبة من الجسمية ومن شيء آخر زائد على الجسمية اما واحد واما أكثر من واحد · فلاحت له صور الأجسام على اختلافها وهو أول ما لاح له من العالم الروحاني اذ هي صور لا تدرك بالحس وانما تدرك بضرب ما من النظر العقلي ولاح له أن الروح الحيواني



الذي مسكنه القلب لا بد له من معنى زائد على جسميته يصلح به لأن يعمل تلك الأعمال الغريبة من ضروب الاحساسات وفنون الادراكات وأصناف الحركات • وذلك المعنى هو صورته وفصله الذي يفصله عن سائر الأجسام ويميزه منها وهو الذي يعبّر عنه بالنفس الحيوانية •

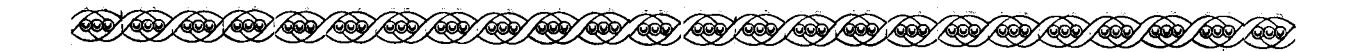
ومثلها النفس النباتية التي هي صورة النبات وفصله المائز له • وكذلك للجمادات شيء يخصها وهو صورتها وفصلها ، ويعبّر عنه بالطبيعة •

وهكذا تجاوز جسمية الأجسام الى صورها وخصائصها التي ينفصل بعضها بها عن بعض • فتأمل بالتفصيل تلك الخصائص والصور التي تميز أنواع الحيوان والنبات والجماد •

وبالتدرج انتهى الى أبسط ما قدر عليه من قلة التركيب وهو الأرض والماء والنار والهواء ، ثم الى الصورة التي تلبس المادة والى المادة أو الهيولى العارية عن الصورة جملة • ولما انتهى نظره الى هذا الحد وأشرف على تخوم العالم العقلي حن الى ما ألفه من عالم الحس فتأمل صور الأركان الأربعة من أرض وماء ونار وهواء • فالماء مثلاً اذا أفرط عليه التسخين استعد للحركة الى فوق وصلح لها فذلك الاستعداد هو صورته • وعلى العموم صلوح الجسم لبعض الحركات دون بعض هو استعداده وصورته • ولاح له مثل ذلك في جميع الصور فتبين له أن الأفعال الصادرة عنها ليست في الحقيقة لها وانما هي لفاعل يفعل بها الأفعال المنسوبة اليها •

فلما لاح له من أمر هذا الفاعل ما لاح على الاجمال دون تفصيل حدث له شوق حثيث الى معرفته على التفصيل • فتصفح جميع الأجسام فلم ير منها شيئاً بريئاً عن الحدوث والافتقار الى الفاعل المختار • فاطرحها كلها وانتقلت فكرته الى الأجسام السماوية • وكان ذلك على رأس ثمانية وعشرين عاماً من عمره •

فعلم أن السماء وما فيها من كواكب أجسام لأنها ممتدة في الأقطار الثلاثة : الطول والعرض والعمق ، وانها جميعاً متناهية • ورأى أن الفلك بجملته وما يحتوي عليه كشيء واحد متصل بعضه ببعض وأن جميع الأجسام كالأرض والماء والهواء والنبات والحيوان وما شاكلها هي كلها في ضمنه وأنه كله أشبه



شيء بشخص من أشخاص الحيوان • ومافيه من الكواكب المنيرة هي بمنزلة حواس الحيوان ، وما فيه من ضروب الأفلاك المتصل بعضها ببعض هي بمنزلة أعضاء الحيوان ، وما في داخله من عالم الكون والفساد هو بمنزلة ما في جوف الحيوان من أصناف الفضول والرطوبات •

فلما تبين له أنه كله كشخص واحد في الحقيقة قائم محتاج الى فاعل مختار تفكر في العالم بجملته هل هو شيء حدث بعد أن لم يكن وخرج الى الوجود بعد العدم ؟ أو هو أمر كان موجوداً فيما سلف ولم يسبقه العدم بوجه من الوجوه • فتشكك في ذلك ، وانتهى بعد التشكك في قدم العالم أو حدوثه الى أنه لا بد على كلا الوجهين من وجود فاعل غير جسم ولا متصل بجسم ولا منفصل عنه ولا داخل فيه ولا خارج عنه ، اذ الاتصال والانفصال والدخول والخروج هي كلها من صفات الأجسام وهو منزه عنها • واذن فالعالم كله بما فيه من السماوات والأرض والكواكب وما بينها وما فوقها فعله وخلقه ، وهو متأخر عنه بالذات وان كان غير متأخر بالزمان في وجه من الوجهين اللذين سلف ذكرهما • وعندئذ تصفح الموجودات مرة جديدة تصفحاً على طريق الاعتبار في قدرة فاعلها والتعجب من غريب صنعته ولطيف حكمته ودقيق علمه • وتبين له في أقل الأشياء الموجودة فضلاً عن أكثرها من آثار الحكمة وبدائع الصنعة ما قضى منه كل العجب ، وتحقق عنده أن ذلك لا يصدر الا عن فاعل مختار في غاية الكمال وفوق الكمال • وكل شيء له حسن أو بهاء أو كمال أو قوة أو فضيلة من الفضائل هو من فيض ذلك الفاعل ومن جوده ومن فضله • وانتهت به المعرفة الى هذا الحد على رأس خمسة وثلاثين عاماً من منشئه ، وقد رسخ في قلبه من أمر هذا الفاعل ما شغله عن الفكرة في كل شيء إلا فيه • وذهل عما كان فيه من تصفح الموجودات والبحث عنها حتى صار بحيث لا يقع بصره على شيء إلا ويرى فيه أثر الصنعة فينتقل بفكره على الفور الى الصانع حتى اشتد شوقه اليه وانزعج قلبه بالكلية عن العالم الأدنى المحسوس وتعلق بالعالم الأرفع المعقول •

فلما حصل له هذا العلم بهذا الموجود الرفيع الثابت الوجود أراد أن يعلم بأي شيء حصل له هذا العلم وبأي قوة أدرك ذلك الوجود ، فتصفح حواسه كلها وهي السمع والبصر والشم والذوق واللمس فرأى أن الحواس لا تدرك إلا جسماً أو

ما هو في جسم . وقد تبين أن هذا الموجود الواجب الوجود بريء من صفات الأجسام من جميع الجهات ولا تعلق له بوجه من الوجوه بالأجسام ، كما تبين أنه أدركه بذاته ، وأن ذاته التي أدركه بها أمر غير جسماني ولا يجوز عليها شيء من صفات الأجسام ، وأن كل ما يدركه من ظاهر ذاته من الجسميات فانها ليست حقيقة ذاته . وإنما حقيقة ذاته ذلك الشيء الذي أدرك به الموجود المطلق الواجب الوجود . فلما علم أن ذاته الحقيقية ليست هذه المتجسمة التي يدركها بحواسه ويحيط بها جلده هان عنده بالجملة جسمه وجعل يتفكر في ذاته الحقيقية الشريفة التي أدرك بها ذلك الموجود الشريف الواجب الوجود . ورأى أن الذات التي أدرك بها ذلك الموجود الشريف الواجب الوجود لا يمكن تصور فسادها وأنها إذا أدركته وتعرّفته تعلقت به وحنت إليه . وتبين له أن كمال ذاته ولذتها إنما هو بمشاهدة ذلك الموجود الواجب الوجود على الدوام مشاهدة بالفعل أبداً حتى لا يعرض عنه طرفة عين لكي توافيه المنية وهو في حال المشاهدة بالفعل فتتصل لذته دون أن يتخللها ألم . ثم جعل يتفكر كيف يتأتى له دوام هذه المشاهدة بالفعل حتى لا يقع منه إعراض . فغدا معرضاً عن جميع المحسوسات والقوى الجسمانية ، مجتمع الهمِّ والفكرة في الموجود الواجب الوجود وحده دون شركة . فمتى سنح لخياله سانح سواه طرده عن خياله جهده وراض نفسه على ذلك ودأب عليه . وفي شدة مجاهدته هذه ربما كانت تغيب عن ذكره وفكره جميع الذوات إلا ذاته . فانها كانت لا تغيب عنه في وقت استغراقه بمشاهدة الموجود الحق الواجب الوجود . ولكنه ما زال يطلب الفناء عن نفسه والاخلاص في مشاهدة الحق حتى تأتى له ذلك ولم يبق إلا الواحد الحق . واستغرق في حالته هذه وشاهد ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . ثم لما أفاق من حالته تلك التي هي شبيهة بالسكر عاد الى ملاحظة الأغيار وخطر بباله أنه لا ذات له يغاير بها ذات الحق تعالى ، وأن حقيقة ذاته هي ذات الحق ، وأن الشيء الذي كان يظن أولاً أنه ذاته المغايرة لذات الحق ليس شيئاً في الحقيقة ، بل لس ثَمَّ شيء إلا ذات الحق ، وأن ذلك بمنزلة نور الشمس الذي يقع على الأجسام الكثيفة فتراه يظهر فيها . فانه وإن نسب الى الجسم الذي ظهر فيه فليس هو في الحقيقة شيئاً سوى الشمس . وإن زال ذلك الجسم زال نوره وبقي نور



الشمس بحاله لم ينقص عند حضور ذلك الجسم ولم يزد عند مغيبه • ومتى حدث جسم يصلح لقبول ذلك النور قبله ، فاذا عدم الجسم ذلك القبول لم يكن له معنى • وتَقوّى عنده هذا الظن بما قد كان بانله من أن ذات الحق عز وجل لا تتكثر بوجه من الوجوه ، وأن علمه بذاته هو ذاته بعينها • فلزم عنده من هذا أن من حصل عنده العلم بذاته فقد حصلت عنده ذاته • وقد كان حصل عنده العلم فحصلت عنده الذات • وهذه الذات لا تحصل الا عند ذاتها ونفس حصولها هو الذات • فاذن هو الذات بعينها •

لقد كتب ابن طفيل هنا صفحات ممتعة محاولاً ما استطاع التدرج العلوي "بحي" والتحليق معتمداً على تشبهات ثلاثة :

١ ـ تشبه بالحيوان غير الناطق • جعله هذا التشبه يعيش في الاغتذاء عيشة اعتدال دون اضرار ولا استئصال وبحسب ما يسد عنده خلة الجوع وفي الحين بعد الحين دفعاً للضعف وامساكاً للرمق •

٢ ـ تشبه بالاجرام السماوية • وكانوا يظنون تبعاً لفلسفة أرسطو أن لها طبيعة خامسة مطهرة غير مادية • ولما رآها تجري في نظام دقيق يتعهد الحياة على وجه الأرض ألزم نفسه اتباع ذلك النظام وأن يتعهد متطلبات الحياة عامة • فجعل يبذل وسعه في عون الحيوان والنبات وفي اتساق القوى الطبيعية على الأرض وهو ما نستطيع قوله في التعابير الحديثة اليوم من دفع التلوث والفساد في جزيرته • وكذلك العناية بنفسه نظافة وطهارة ثم ملازمة الفكرة في ذلك الموجود الواجب الوجود وفي حكمته وسننه التي تجري بمقتضاها تلك الأفلاك •

٣ ـ تشبه بالموجود الواجب الوجود وصفاته • وقد تبين له أن تلك الصفات على ضربين : اما صفات ثبوت كالعلم والقدرة والحكمة واما صفات سلب ترجع كلها الى التنزه عن الجسمية • فأخذ يطرح عن ذاته أوصاف الجسمية ما عدا ما لا بد منه من الحركة والاعتناء بأمر الحيوان والنبات والرحمة لها وازالة عوائقها وأعرض عن جميع المحسوسات والقوى الجسمانية وغدا مجتمع الهم والفكرة في الموجود الواجب الوجود وحده دون شركة واستغرق في مجاهدته كما شرحنا ذلك آنفاً حتى غاب عن نفسه في مشاهدة الحق •

يتلامح من وراء هذا الترتيب ودرجات التشبه روح النهج الاسلامي الشرعي ثم الاتجاه الصوفي الحقيقي الرفيع • وهكذا يصل ابن طفيل بحي" الى ذروة الحكمة المشرقية والتصوف في الفلسفة الاسلامية •



وقد ألح المؤلف على كيفية تعرف حي بن يقظان لذاته الانسانية الحقيقية الشريفة وأن من حصّل العلم بذاته فقدحصلت عنده ذاته ، ونفس حصولها هو الـذات • ويظهر من ذلك أن الـذات هي التي أشار اليها التنزيل الكريم : « **قل الروح من أمر ربي** » وانها خالدة ،وأن حديث المؤلف عنها يصلح أن يكون مقدمة واضحة أو موحية لكوجيتو الفيلسوف الفرنسي ديكارت الذي أطلقها بعد نحو خمسة قرون : « أنا أفكر اذن أنا موجود » وأن مثل هذا الحديث هو الذي جعل ديكارت أيضاً يمنع أن يكون للحيوان روح أو نفس ــ هذا مع جواز أن يكون في الفلسفة الاسلامية أيضاً مواضع أوحت بذلك الكوجيتو أو يسّرت له كما أشار الى ذلك المفكر الايطالي فُرلاني G. Furlani في مقال نشره عام ١٩٢٧ في مجلة Islamica بعنوان « ابن سينا ومقولة ديكارت » معتمداً على نص للشيخ الرئيس باسم « الرجل الطائر » ورد في كتابه « الشفاء » •

ومهما يكن من أمر فان مؤلف حي بن يقظان حين وصل بحيّ الى تلك الذروة من الحكمة ومن التأمل والاستغراق شعر بضيق المجال وبخطر التحكم بالألفاظ على أمر ليس من شأنه أن يلفظ، بل باستحالة التعبير عن تلك الحالة اذ لا سبيل الى التحقيق بما في ذلك المقام الا بالوصول اليه •

ثم أراد المؤلف أن يمتع القارىء بتمام خبر حي • وليس تمام الخبر بأقل شأناً من الخبر ذاته • وذلك لبيان اتفاق الحكمة مع حقيقة الشريعة وأن الناس ليسوا سواءً في تفهم حقيقة كل من الشريعة والحكمة • ولهذا يقحم المؤلف حياً وقد وصل الى قمة المعرفة والعرفان في مجتمع انساني ليتدبر وجوه الواقع وأصناف الناس ويتبين مزايا المتألهين ورفعتهم وسجايا المؤمنين الصادقين وضلال الدهماء الذين هم كسوام الانعام لا يتمسكون الا بالدنيا، قد تغشّتهم ظلمات الحجب • فقد ذكروا أن جزيرة قريبة من تلك التي نشأ بها حي انتقلت اليها ملّة من الملل الصحيحة المأخوذة عن بعض الأنبياء • وكان قد ترعرع بتلك الجزيرة فتَيان من أهل الفضل والرغبة في الخير • أحدهما اسمه أبسال أو أسال واسم الآخر سلامان • وكلاهما انتحلا هذه الملّة وقبلاها أحسن قبول والتزما جميع شرائعها وأعمالها واصطحبا على ذلك • فأما أبسال فكان أشد غوصاً على الباطن وأكثر عثوراً على المعاني الروحانية وأطمع في التأويل • وأما سلامان فكان



أشد احتفاظاً بالظاهر وأشد بعداً من التأويل ، وأوقف عن التصرف والتأمل . وكان في تلك الشريعة أقوال تحمل على العزلة والانفراد وتدل على أن الفوز والنجاة فيهما . وأقوال أُخَر تحمل على المعاشرة وملازمة الجماعة . فتعلق أبسال بطلب العزلة ، وتعلق سلامان بملازمة الجماعة .

وكان أبسال قد سمع عن الجزيرة التي تكوّن ابن يقظان بها وعرف ما بها من الخصب والمرافق والهواء المعتدل . فأجمع أمره على الانفراد بها وارتحل اليها وبقي بها يعبد الله عز وجل وأقام على هذه الحال مدة وهو في أتم غبطة وأعظم أنس بمناجاة ربه .

واتفق أن خرج حيّ لالتماس غذائه ، وأبسال قد ألمّ بتلك الجهة فوقع بصر كل منهما على الآخر فأما أبسال فلم يشك في أنه من العباد المنقطعين وصل الى تلك الجزيرة اعتزالا للناس ، فآثر احترام اعتزاله وعدم التعرض له . وأما حيّ فلم يدرِ ما هو لأنه لم يره على صورة شيء من الحيوانات التي كان قد عاينها قبلا . فوقف يتعجب منه ملياً . وولى أبسال هارباً منه خيفة أن يشغله عن حاله . فاقتفى حيّ أثره لما كان في طباعه من البحث عن حقائق الأشياء . فلما رآه يشتد في الهرب توارى له حتى ظن أبسال أنه قد انصرف عنه . وشرع أبسال في الصلاة والقراءة والدعاء والبكاء والتضرع . فجعل حي يتقرب منه قليلا قليلا حتى دنا منه بحيث يسمع قرءاته وتسبيحه ويشاهد خضوعه وبكاءه . فسمع صوتاً حسناً وحروفاً منظمة لم يعهد مثلها من شيء من أصناف الحيوان . ونظر الى أشكاله وتخطيطه فرآه على صورته ، فزاد في الدنو حتى أحس به أبسال ، فاشتد في العدو واشتد حيّ في أثره حتى التحق به ، ففزع منه . ولكن حياً شرع يؤنسه بأصوات تعلمها من بعض الحيوانات ، ويجر يده على رأسه ويمسح أعطافه ويظهر البشر والفرح به حتى سكن جأش أبسال وعلم أنه لا يريد به سوءاً . وكان أبسال قد تعلم أكثر الألسن ومهر فيها ، فجعل يكلم حياً ويسأله عن شأنه بكل لسان يعلمه ويعالج افهامه فلا يستطيع ، وحيّ يتعجب مما يسمع ولا يدري ما هو عليه ، فاستغرب كل واحد منهما أمر صاحبه . ورأى حيّ أن يقيم مع أبسال حتى يقف على حقيقة شأنه . فالتزم صحبته . ولما رأى أبسال أنه لا يتكلم أمن من غوائله على دينه ، ورجا أن يعلمه الكلام والعلم

والمدين زلفى عند الله فشرع في تعليمه الكلام أولا بأن يشير له الى أعيان الموجودات وينطق بأسمائها ويكرر ذلك عليه ويحمله على النطق بها حتى علمه الأسماء كلها ودرّجه قليلا قليلا حتى تكلم في أقرب مدة . فجعل أبسال يسأله عن شأنه ومن أين صار الى تلك الجزيرة فأعلمه حيّ أنه لا يدري لنفسه ابتداءً ولا أباً ولا أماً أكثر من الظبية التي ربته، ووصف له شأنه كله، وكيف ترقى بالمعرفة الى درجة الوصول . فلما سمع أبسال منه وصف تلك الحقائق والذوات المفارقة لعالم الحس العارفة بذات الحق عزّ وجلّ ووصف ذات الحق تعالى وجل بأوصافه الحسنى ووصف ما أمكنه وصفه مما شاهده عند الوصول من لذات الواصلين وآلام المحجوبين لم يشك أبسال في أن جميع الأشياء التي وردت في شريعته من أمر الله عزّ وجلّ وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وجنته وناره هي أمثلة هذه التي شاهدها حي بن يقظان . فانفتح بصر قلبه، وانقدحت نار خاطره، وتطابق عنده المعقول والمنقول، وقربت عليه طرق التأويل، ولم يبق عليه مشكل في الشرع الا تبين له ولا مغلق الا انفتح ولا غامض الا اتضح وصار من أولي الألباب . وعند ذلك نظر الى حي بعين التعظيم وتحقق عنده أنه ولي من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. فالتزم خدمته والاقتداء به . وجعل حي، وكانت سنه اذ ذاك خمسين عاما يستفصحه عن أمره وشأنه . فجعل أبسال يصف له شأن جزيرته وما فيها من العالم وكيف كانت سِيَرَهم قبل وصول الملة اليهم، وكيف هي الآن بعد وصولها ووصف له جميع ما ورد في الشريعة من وصف العالم الالهي والجنة والنار والبعث والنشور والحشر والحساب والميزان والصراط . ففهم حيّ هذا كله ولم يرفيه شيئاً على خلاف ما شاهده في مقامه الكريم . فعلم أن الذي وصف ذلك وجاء به محق في وصفه صادق في قوله، رسول من عند ربه، فآمن به وصدقه وشهد برسالته . ثم جعل يسأله عما جاء به من الفرائض والعبادات فوصف له الصلاة والزكاة والصيام والحج وما أشبهها من الأعمال الظاهرة . فتلقى ذلك والتزمه . الا أنه بقي في نفسه أمران كان يتعجب منهما ولا يدري وجه الحكمة فيهما .

أحدهما لم ضرب هذا الرسول الأمثال للناس في أكثر ما وصفه من أمر العالم الالهي وأضرب عن المكاشفة حتى وقع الناس في التجسيم واعتقاد أشياء في ذات الحق هو منزه عنها، وكذلك في أمر الثواب والعقاب ؟

والأمر الآخر لم اقتصر على هذه الفرائض ووظائف العبادات ، وأباح اقتناء الأموال والتوسع في المآكل حتى يفرغ الناس للاشتغال بالباطل والاعراض عن الحق ؟

وكان رأيه هو ألا يتناول أحد شيئاً الا ما يقيم به الرمق • وأما الأموال فلم يكن لها عنده معنى • وكان يرى ما في الشرع من الأحكام في أمر الأموال كالزكاة وتشعبها والبيوع والربا والحدود والعقوبات ، فكان يستغرب ذلك كله ويراه تطويلا ويقول : ان الناس لو فهموا الأمر على حقيقته لأعرضوا عن هذه البواطل وأقبلوا على الحق واستغنوا عن هذا كله ، ولم يكن لأحد اختصاص بمال يسأل عن زكاته أو تقطع الأيدي على سرقته أو تذهب نفوس على أخذه مجاهرة •

وقد سبق ظنه الى أن الناس كلهم ذوو فطر فائقة وأذهان ثاقبة ونفوس حازمة ، وما درى ما هم عليه غالباً من البلادة والنقص وسوء الرأي وضعف العزم وأنهم كالأنعام السائمة •

فاشتد اشفاقه عليهم وطمع أن تكون نجاتهم على يديه ، ففاوض في ذلك صاحبه أبسال ، وطمع هذا أن يهدي الله على يدي حيّ طائفة من معارفه • فالتزما البحر • وكان أن سفينة ضلت مسلكها وقربت من البر ورأى أهلها الرجلين على الشاطيء فدنوا منهما وحملوهما معهم الى الجزيرة التي قصداها • وكان رأس الجزيرة سلامان صاحب أبسال وملازم الجماعة ومحرم العزلة ، فشرع حي في تعليمهم وبث أسرار الحكمة اليهم فجعلوا ينقبضون منه ويتسخطونه في قلوبهم • وما زال كذلك حتى يئس من اصلاحهم . وتصفح الناس بعد ذلك فرأى أن كل حزب بما لديهم فرحون ، قد اتخذوا إلههم هواهم ، وتهالكوا في جمع حطام الدنيا • وأما الحكمة فلا سبيل لهم اليها • ولا تمكن مخاطبتهم بطريق المكاشفة • وحظ أكثر الجمهور من الانتفاع بالشريعة انما هو في حياتهم الدنيا ليستقيم لكلٍّ منهم معاشه ولا يتعدى على سواه • ولا يفوز منهم بالسعادة الأخروية الا الشاذ النادر •

فانصرف حي الى سلامان وأصحابه واعتذر عما تكلم به معهم وتبرأ اليهم منه ، وأعلمهم أنه قد رأى مثل رأيهم واهتدى بمثل هديهم ، وأوصاهم بلازمة

ما هم عليهم من التزام حدود الشرع والأعمال الظاهرة والاقتداء بالسلف الصالح والترك لمحدثات الأمور ، وأمرهم بمجانبة ما عليه جمهور العوام من اهمال الشريعة والاقبال على الدنيا . وعلم هو وصاحبه أبسال أن هذه الطائفة المريدة القاصرة لا نجاة لها الا بهذا الطريق ، وأنها ان رفعت عنه الى يفاع الاستبصار اختل ما هي عليه ولم يمكنها أن تلحق بدرجة السعداء . وهي ان دامت على ما هي عليه حتى يوافيها اليقين فازت بالأمن وكانت من أصحاب اليمين . وأما السابقون فأولئك المقربون . (يتذكر ابن طفيل هنا سورة الواقعة وما جاء فيها من تصنيف الناس يوم القيامة) . فودعاهم وانفصلا عنهم وتلطفا في العود الى جزيرتهما . وطلب حي بن يقظان مقامه الكريم بالنحو الذي طلبه أولا حتى عاد اليه واقتدى به أبسال وعبدا الله بتلك الجزيرة حتى أتاهما اليقين .

تلك خلاصة رسالة « حي بن يقظان » . يقول المؤلف في ختام الرسالة : « ولم نُخل مع ذلك ما أودعناه هذه الأوراق اليسيرة من الأسرار عن حجاب رقيق وستر لطيف ينهتك سريعاً لمن هو أهله ، ويتكاثف لمن لا يستحق تجاوزه حتى لا يتعداه » .

وهذه اشارة واضحة الى أن المؤلف أراد أن يسلك طريق الرمز والتغطية ولو بعض الشيء فيما يقصد . فلا بد من الاستفهام في حل تلك الرموز . فهل رمز بحي الى العقل الانساني وبيقظان الى الاله ؟ وهل قصد لما سلف آنفاً في التقاء حي بن يقظان وأبسال واتفاقهما الى التقاء النظر العقلي الفلسفي الحر والشرائع التي جاءت بها الرسل كما نوه بذلك من قبله الفارابي وابن سينا وكما أكده بعده ابن رشد أيضاً ؟ أثُمَّ لا يدل اخفاق حي بن يقظان بين أهل الجزيرة الثانية على عجز جماهير الناس عن ادراك مقاصد الفلسفة وتجريداتها سواء أكانوا مؤمنين بالشرائع أم كانوا عُمْياً عن غاياتها ؟ أو لا يشبه تفاوت أبسال وسلامان تفاوت أهل الباطن أصحاب التأويل وأهل الظاهر الذي يتمسكون بالنصوص ؟ كل ذلك جائز ، بل هو شديد الرجحان . ولكننا نظن مع ذلك أن ثمة أموراً كان يعتقدها المؤلف وأراد أن يدل عليها ويلوح بها من بعيد وهي تنويهه بالفطرة السليمة وبالحكمة السديدة وتنديده بالمجتمع الذي كان

يعيش فيه ، كذلك فهمه لكنه الحياة وأصلها ولطبيعة الثواب والعقاب وما الى ذلك .

ولكن طريقة الرمز تمنع القطع في الحكم ، لأن الرمز جَفر' السر ، يقول ما لا يقال بغيره . وهو كالقطعة الموسيقية لا تنحل مقاصدها بالسماع مرة واحدة . بل تتجدد ايحاءاتها وتزداد معانيها بتجدد سماعها . ولا شك في أن زيادة الايضاح في رموز ابن طفيل تستدعي زيادة دراسة العصر الذي عاش فيه والاطار الفكري للآراء والتلويحات من قبله ومن بعده . وربما كان بعض التلويحات في رموزه تبدو بصورة أجهر وأقوى في كتابات مواطنه الفيلسوف الصوفي الكبير محيي الدين بن عربي الذي كان في سن العشرين حين مات ابن طفيل .

* * *

قصة حي بن يقظان تدخل في نطاق ما صار يدعى في العصور الحديثة بالطوباوية وهو لفظ يقابل لفظ أو توبيا ويوتوبيا في اللغات الأجنبية . لا بد لنا من شرح أصول هذين اللفظين العربي والأجنبي .

الطوباوية أو الطوبوية ويستعمل بعض الكتاب لفظ الطوبائية مصدر صناعي من طوبى .

ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم مرة واحدة في الآية ٢٩ من سورة الرعد « **الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب** » . جاء في تفسير « الكشاف » للزمخشري : « طوبى مصدر من طاب كبشرى وزلفى . ومعنى طوبى لك أصبت خيراً وطيباً . ومحلها النصب أو الرفع كقولك طيباً لك وطيب لك ، وسلاماً لك وسلام لك ، والقراءة في قوله وحسن مآب بالرفع والنصب تدلك على محليها . واللام في لهم للبيان مثلها في سقياً لك . والواو في طوبى منقلبة عن ياء لضمة ما قبلها كموقن وموسر . وقرأ مكوَرة الأعرابي طيبى لهم فكسر الطاء لتسلم الياء » . قول الزمخشري : ان الواو في طوبى منقلبة عن الياء معناه أن الأصل طُيبى . زدنا في الشرح لزيادة الايضاح . على أن الرجوع الى كتب اللغة يزيدنا تعرفاً لهذا اللفظ . ففي هذه الكتب ، الطوبى : الطيب ، وجمع المطيّبة وهو من نوادر الجموع ، وتأنيث الأطيب . ومن معانيها السعادة والغبطة

والخير والخيرة . وجاء عن النبي ﷺ أنطوبى شجرة في الجنة وهو علَم عليها . وقيل طوبى فُعلى من الطيب والمعنى العيش الدائم الطيب . وقيل طوبى اسم الجنة بالهندية معربة عن توبى أو اسم الجنة بالحبشية .

في « فيض القدير شرح الجامع الصغير » ثلاثون حديثاً نبوياً يبدأ بلفظ طوبى . أولها « طوبى للشام لأن أجنحة الملائكة باسطة أجنحتها عليه » أي لأن ملائكة البليغ الرحمة الذي وسعت رحمته كل شيء تحفها وتحوطها بانزال البركات ودفع المهالك والمؤذيات . قال الهيثمي :« رجاله رجال الصحيح » .

هذا واللفظ الذي تتبعناه وجدناه في الآرامية والعبرانية ونظن أنه في سائر اللغات السامية وهو يدل على الخير والسعادة والهناء كما يدل على المجتمع الرافه الوادع الرافل بالهدوء والطمأنينة والسعة .

أما اللفظ الأجنبي فأول من استعمله الكاتب القس الانكليزي توماس مور أو موروس Morus كما لتَّن اسمه (١٤٧٨ ـ ١٥٣٥) وهو جزء من عنوان كتاب له ألَّفه باللاتينية وهو De optimo reipublicae statu deque nova insula Utopia ألفه عام ١٥١٦ ولكن الكتاب شاع بعنوان يوتوبيا وترجم الى الانكليزية عام ١٥٥١ . ومع أن الكتاب والعنوان كليهما باللاتينية فان المؤلف يقال انه صاغ أوتوبيا من اليونانية (أو بمعنى لا ، وتوبيا بمعنى مكان) فيكون لفظ أوتوبيا أو يوتوبيا معناه لا مكان أو عديم المكان . وقد صور المؤلف حياة اجتماعية مثالية في جزيرة خيالية (يوتوبيا) يعيش سكانها في ظل نظام اقتصادي واجتماعي وسياسي يكفل لهم العدالة ويقدم لهم ما يحتاجونه من طعام وسلع ويفرض على كلٍّ منهم أداء عمل يدوي وهم سعداء هانئون كأنهم في جنة دنيوية . ومن مظاهر سعادتهم ازدراؤهم للذهب وكنز المال واقتناء الثروات .

وقد اصطنع العرب المترجمون الحديثون المصدر الصناعي طوباوية للدلالة على ما يدل عليه اللفظ الأجنبي . وربما كان اللفظ العربي أفضل دلالة على المقصود وأكثر تفاؤلا وأقرب فحوى من اللفظ الأجنبي الذي يدل على عدم وجود المكان .

بل نحن نذهب الى أن اللفظ العربي الوارد في اللغات السابقة التي كانت معروفة لدى المثقفين في عصر النهضة الأوربية ربما أوحى الى المؤلف الانكليزي باللفظ الذي صاغه من لغة لم يكتب كتابه بها • ثم انه يصعب على المؤلف أن يتخيل مجتمعاً ويكتب فيه كتاباً ثم يمنع امكان تحقيقه في مكان ما • ومع ذلك غدا لفظ الطوباوية أو اليوتوبيا يطلق على كل نظام مثالي لمجتمع انساني يتصوره مؤلف أو كاتب ويطمح الى تحقيقه أو يتمنى حصوله • وانما يعمد الكاتب أو المؤلف الى تصور ذلك النظام ضيقاً بالمجتمع الذي يعيش بين ظهرانيه وتنديداً بحياة الناس وبؤسهم في المجتمع الراهن • فمثل هذه الكتب الفكرية أو الأدبية تصوير لأحلام مؤلفيها وطموح الى تحقيق تلك الأحلام في عصورهم أو في العصور التالية • وفيه أيضاً نزوع الى التغيير الاجتماعي الانساني • من أشهر المؤلفات « جمهورية أفلاطون » (٤٢٨ _ ٣٤٧ ق•م) و « رسالة في آراء أهل المدينة الفاضلة » للفارابي (٢٥٩ هـ/ ٨٧٢ م _ ٩٥١/٣٣٩) وكتاب « تدبير المتوحد » لمحمد بن يحيى بن باجه (توفي عام ١١٣٩/٥٣٣) الذي تأثر به ابن طفيل كما يمكن عدّ « رسائل اخوان الصفا » بما قصدوه من اصلاح الفرد والمجتمع من الطوباويات • وثمة طوباوية غريبة تختلف عن جميع ما سلف فهي نفسية خيالية صرف ينبه مؤلفها على طبيعتها هذه ولا تطمع الى التحقيق لأنها متحققة في عالم الروح والخيال • انها « أرض السمسمة » التي يورد الشيخ محيي الدين بن عربي (٥٦٠ هـ/١١٦٥ م _ ٦٣٨/١٢٤٠) وصفها في كتابه المشهور « الفتوحات المكية » : « وفيها من العجائب والغرائب ما لا يقدر قدره ويبهر العقول أمره » • ينقل المؤلف قول بعض العارفين : « لما دخلت هذه الأرض رأيت فيها أرضاً كلها مسك عطر لوشمه أحد منا في هذه الدنيا لهلك لقوة رائحته تمتد ما شاء الله أن تمتد • ودخلت في هذه الأرض أرضاً من الذهب الأحمر اللين فيها أشجار كلها ذهب وثمرها ذهب فيأخذ الرجل التفاحة أو غيرها من الثمر فيأكلها فيجد من لذة طعمها وحسن رائحتها ونعمتها ما لا يصفه واصف تقصر فاكهة الجنة عنها فكيف فاكهة الدنيا » • ثم يقول المؤلف : « واذا نظرت الى نسائها ترى أن النساء الكائنات في الجنة من الحور بالنسبة اليهن كنسائنا من البشر بالنسبة الى الحور في الجنان » ثم يقول : « وكل

ما أحاله العقل بدليله عندنا وجدناه في هذه الأرض ممكناً قد وقع » • وتذكّرنا الجملة الأخيرة ما جاء في المشهد الأخير من رواية « فاوست » الثانية للشاعر الألماني الشهير غوتي يقول ما ترجمته : « المستحيل على الوصف يقع هنا بالفعل » ولقد أعلى الشيخ محيي الدين شأن الخيال وجعله ركناً عظيماً من أركان المعرفة • يقول في الباب السابع والسبعين ومائة في معرفة مقام المعرفة من الفتوحات المكية : « ومن لا يعرف مرتبة الخيال فلا معرفة له جملة واحدة • وهذا الركن من المعرفة اذا لم يحصل للعارفين فما عندهم من المعرفة رائحة » (ج ٢ ص ٣١٣ دار الكتب العربية) • ولا عجب عندئذ أن يكون الخيال مصنعاً للطوباويات ومزرعة لا حدود لها ينمو فيها مختلف العوالم ممكنة ومتعذرة • لكن العجيب في هذا أن السمسمة بزرة صغيرة فضلت عن الطينة التي خلق منها سبحانه وتعالى سيدنا آدم • فسوّى من هذه الفضلة النخلة . فهي بهذا الاعتبار عمتنا . وبقي من طين هذه الفضلة مقدار ضئيل يعادل جرم السمسمة فصنع منه أراضي واسعة وعوالم لا تكاد يكون لها حدود سُميت أرض السمسمة • ذكرنا بعض ملامحها آنفاً • الفيلسوف الفرنسي الحديث غاستون بشلار (١٨٨٤ ــ ١٩٦٢) لم يطلع على ما كتبه ابن عربي • ولكن دبج بحثاً طريفاً في كتابه « شاعرية المكان » LA POETIQUE DE L'ESPACE « بعنوان الرسم المصغّر la miniature » أو النمنمة أورد فيه أمثلة من كتب مؤلفين أمثال شارل نوديي Charles Nodier وغيره تفتحت أخيلتهم عن احالات وغرائب لا تجد لها تحقيقاً الا في عالم الخيال • ولو اطلع بشلار على ما كتبه مؤلف الفتوحات لألفى فيه ضالة أي ضالة لموضوعه الطريف • وانما استطردنا هذا الاستطراد لنشير الى غنى التراث العربي الاسلامي الذي يحتاج الى التنقيب عن الجواهر الفريدة •

ومن الطوباويات « مدينة الشمس » للمفكر الايطالي كمبانيلا (١٥٦٨ ــ ١٦٣٩) نشرها باللاتينية عام (١٦٢٣) • ان هذا المفكر تصور مدينة فاضلة في مدينة تبروبانا التي هي اليوم جزيرة سيلان قريبة من خط الاستواء كأنه يتابع مؤلف حي بن يقظان • وهو يذكر في كتابه جمهورية أفلاطون ويوتوبيا توماس موروس • ومن تلك المؤلفات « أطلنطس الجديدة » لفرنسيس بيكون (١٥٦٠ ــ ١٦٢٦) كتبها بالانكليزية حوالي ١٦٢١ ، « والرحلة الى ايكاريا »

للمفكر الفرنسي ايتين كابي (١٧٨٨ ـ١٨٥٦) نشرها عام ١٨٤٥ وهو من ممثلي الاشتراكية الطوباوية ومن روادالاشتراكية الحديثة · حاول أن يؤسس مجتمعاً اشتراكياً مثالياً فسافر هو وأتباعه الى الولايات المتحدة الأمريكية وأنشأ على أرض منها ذلك المجتمع فنجح أول الأمر ثم عصفت به وبأتباعه نزعات الخلاف التي أدت الى الاخفاق · على أن أمثاله الذين تقدموه وحلموا بالاصلاح أصابهم الاخفاق أيضاً ·· أما رسائل اخوان الصفا فقدكتم أصحابها أسماءهم. ولقد مات ابن باجه مسموماً · وقد ترجمت « أطلنطس الجديدة » الى اللاتينية ونشرت عام ١٦٢٧ بعد وفاة بيكون ، وكان هذا قد اتهم في حياته بالرشوة واختلاس مال الدولة · وتعرض كمبانيلا لصروف التعذيب وللسجن الطويل وللنفي · وحكم على موروس بالاعدام. وأخفق أفلاطون اخفاقاًذريعاً في صقلية حين أنكر الفساد المتفشي في بلاط ملكها وأعرب عن آرائه الاصلاحية · فاعتقل وبيع رقيقاً ثم حرره مولاه ·

على أنه قد يطلق لفظ الطوباوية بشيء من الزراية على مُثُل سياسية واجتماعية مشوقة وجذابة ولكن يتعذر تحقيقها على صعيد الواقع لبعدها من طبيعة الانسان وأحوال حياته · ومع ذلك فان كثيراً من آراء المفكرين والفلاسفة وسوانح رؤاهم المستقبلية كانت بداية لاصلاحات اجتماعية وتغييرات سياسية مهمة ·

نلاحظ أن تلك الرؤى والآراء التي تتشوف نحو عالم مثالي وحياة انسانية فضلى كانت تظهر في ابان الفتن والقلق الاجتماعي والأزمات السياسية · فكان الفلاسفة يلجؤون الى تدبيج المؤلفات التي تتألق بأحلامهم المتوهجة ورؤاهم المتوهمة ، وهم يطمحون الى التغيير والاصلاح كما سلف ويتصورون الناس في حياتهم الاجتماعية المثلى ·

وهكذا يمكن أن نعد حي بن يقظان من الكتب الطوباوية · ولكنها على خلاف جميع الكتب السالفة طوباوية فردية · فهي لا تتحدث عن نظام اجتماعي انساني وانما تعرض حياة طفل انساني عاش منفرداً واستطاع أن تكون معيشته بعد الجهد مثالية تعتمد على الذكاء والعقل كما تعتمد على الاكتفاء الذاتي ويصل



فيها بعد لأي ومشقة الى أعلى درجة يستطيع مفكر متوحد أن يصل اليها . وبهذا الاعتبار تختلف عن جميع المؤلفات الطوباوية .

يقول أرسطو في حقيقة الانسان :انه حيوان مدني أي اجتماعي، ولا يمكن تصور كائن يكتفي بذاته ولا يحتاج الى غيره ولا يشارك في مجتمع الا أن يكون وحشاً من الوحوش أو الهاً من الآلهة .ومع ذلك فحيّ قد استطاع أن يفعل ذلك بعد أن رئمته أمه الظبية ويقترب في مسالك حياته وتجليات تفكيره وآرائه في الخير والعبادة والتجرد من صفات الاله .

ان القسم الأخير من رسالة حي بن يقظان ذو شأن كالقسم الأول منها . نشعر أن ابن طفيل لم يكن راضياً عن المجتمع الذي كان يعيش فيه ولا عن غالبية الناس الذين كانوا يؤلفونه .يقول في بطله حي : انه ظن « أن الناس كلهم ذوو فطر فائقة وأذهان ثاقبة ونفوس عازمة ولم يكن يدري ما هم عليه من البلادة والنقص وسوء الرأي وضعف العزم وأنهم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً » .

ولما جاء حي مع أبسال الى الجزيرة الثانية ورأى ما هم فيه من الضلال أشفق عليهم وطمع أن تكون نجاتهم على يديه . فتصفح طبقاتهم ورأى « أن كل حزب بما لديهم فرحون . وقد اتخذوا الههم هواهم ومعبودهم شهواتهم وتهالكوا في جمع حطام الدنيا . ألهاهم التكاثر حتى زاروا المقابر . لا تنجح فيهم الموعظة ولا تعمل فيهم الكلمة الحسنة ، ولا يزدادون بالجدل الا اصراراً . وأما الحكمة فلا سبيل لهم اليها ولا حظ لهم منها . وقد غمرتهم الجهالة وران على قلوبهم ما كانوا يكسبون « **ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ». (سورة البقرة الآية ٧)

وفحوى ذلك أن الدين الذي انتحلوه لم ينفذ الى قلوبهم ولم يسطع نوره في أذهانهم وأن « حظ أكثر الجمهور من الانتفاع بالشريعة انما هو في حياتهم الدنيا ليستقيم له معاشه ولا يتعدى عليه سواه فيما اختص هو به ، وأنه لا يفوز منهم بالسعادة الأخروية الا الشاذ النادر . لقد فهم « أحوال الناس وأن أكثرهم بمنزلة الحيوان غير الناطق » فيئس من هدايتهم كما يئس مؤلف القصة من أهل زمنه .

أيتوقف ابن طفيل عند اليأس أم يجد منفذاً آخر للتأثير في الناس بعد أن لخص لهم في القسم الأول من رسالته قصة المعرفة الانسانية · لا شيء يفيد في رأيه سوى الفلسفة والحكمة ومخاطبة فطرة الانسان السليمة وضميره الحي والدعوة الى النظر والتأمل والحد من التهافت على جمع المال وكنز الذهب وارضاء الشهوات وسوى الحث على الرقي شيئاً فشيئاً بالتجرد والمكاشفة والمشاهدة. ولتكن تلك الدعوة والمخاطبة على شكل قصة رمزية لا باسداء النصائح وتقديم المواعظ · فالقصة تنويه بالحكمة وبانعام النظر في أغراض الشريعة البعيدة الموازية لأهداف الحكمة في ترقية النفس وتحسين المجتمع ·

* * *

عالج الباحثون تأثير رسالة حي بن يقظان في الآداب والأفكار الأوربية · وذلك أنها ترجمت الى لغات عدة · ترجمها الى اللغة العبرية موسى النربوني عام ١٣٤٩ · بعد حين ترجمها في انكلترة الى اللاتينية ونشرها مع النص العربي ادوارد بوكوك عام ١٦٧١ · ثم ترجمت الى الهولندية عام ١٦٧٢ باشراف الفيلسوف الهولندي اسبينوزا (١٦٣٢ ـ ١٦٧٧) · ثم ترجمها عن اللاتينية الى الانكليزية جورج كيث عام ١٦٧٤ · وترجمها مرة ثانية عن اللاتينية الى الانكلزية جورج أشويل عام ١٦٨٦ · وترجمها ثالثة عن العربية الى الانكليزية سيمون أوكلي عام ١٧٠٨ وكان أستاذاً للغة العربية بجامعة كمبردج . ثم توالت الترجمات الى مختلف اللغات الأوربية · ومن أجودها ترجمة المستشرق الفرنسي ليون غوتيي لها عام ١٩٠٠ الى الفرنسية · ثم أعجب الفلاسفة والمفكرون الأوربيون بها ورحبوا ولا سيما الذين أشادوا بالحال الطبيعية للانسان في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وخاصة الكاتب الفرنسي جان جاك روسو · ثم ظهرت طبعاتها العربية متأخرة · ومن أفضل هذه الطبعات ما نشره الدكتوران جميل صليبا وكامل عياد مع مقدمة ضافية عام ١٩٣٥ بدمشق · ثم حققها أحمد أمين ونشرها في دار المعارف بالقاهرة عام ١٩٥٢ ومعها رسالتان احداهما لابن سينا بنفس العنوان والأخرى للسهروردي مقتول حلب بعنوان « الغربة الغربية » وترادفت طبعاتها في دمشق وبيروت والقاهرة



ولا غرو بعد نشر ترجماتها في القرن السابع عشر بأوربة أن يكون لها تأثير واسع وأن يستفيد من شكلها القصصي واتجاهها الروحي وسلاستها ويستوحيها مؤلفون ذاع صيتهم وشاعت كتبهم • عشاق الأدب المقارن يهمهم استبانة هذا التأثير • وبصرف النظر عن الترجمات وتتبع التأثير والتدقيق في ذلك الأدب فقد كانت اللغة العربية والثقافة العربية رائجتين بين العلماء في بلاد الغرب • فلا عجب أن يؤلف الأب اليسوعي الاسباني بلتازار غراثيان إي موراليس (١٦٠١ ـ ١٦٥٨) رواية بعنوان« النقاد El Criticon » نشر الجزء الأول منها عام ١٦٥١ والثاني عام ١٦٥٣ والثالث عام ١٦٥٧ وكل جزء يقابل احدى مراحل العمر الثلاث : الربيع يضم الطفولة والصبا ، والخريف يشمل سن النضج ، والشتاء يوازي الهرم •ومثل هذا التقسيم يحكي تقسيم ابن طفيل لمراحل حي بن يقظان في تدرج معارفه • وفي الجزء الأول مشابه لسيرة حي أيضاً • قرنيليو يركب متن الأسفار بحثاً عن زوجته المخطوفة • وتتعرض السفينة التي ركبها للغرق قريباً من ساحل جزيرة سانت هيلانة • وينقذه فتى كان يعيش هنالك عيشة الحال الطبيعية وهو يجهل أصله وأمه وأباه ولا يتكلم بلغة ما • فلقنه لغته وعلمه وسماه أندرنيوس وغدوا يتنقلان في أنحاء العالم ويواجهان الصروف المختلفة حسب مراحل العمر •

وثمة رواية بلغت أقصى الشهرة في العالم كله وهي روبنسون كروزو باللغة الانكليزية مؤلفها دانيال ديفو (١٦٦٠ ـ ١٧٣١) ظهرت عام ١٧١٩ بعد شيوع ترجمات رسالة حي بن يقظان اللاتينية والانكليزية • وهي وان أشبهت رسالة حيّ في بعض جوانبها تختلف عنها كسابقتها « النقاد » في الافاضة وفي تطويل التفاصيل • وقد غدت أصلاً في اللغة الانكليزية من أصول الرواية الحديثة التي تتجه نحو وصف الحياة الواقعية وان كانت تخيلاً مستفاداً من الرسالة العربية ومن قصة تروي طوراً من حياة الملاح الاسكتلندي ألكسندر سلكيرك •

وقد كثر الباحثون في بيان هذا التأثير وأمثاله مؤكدين له أو متحرجين • وأفرد له السيد حسن محمد عباس كتاباً في الدراسات المقارنة بعنوان «حي بن يقظان وروبنسون كروزو » يجدر الرجوع اليه عند تقصي هذا التأثير •



يرى علماء الاجتماع أن المجتمع الانساني وجد طفرة واحدة لأن الفرد من بني البشر يتعذر عليه أن يعيش متوحداً على الأرض • ويتصور بعض المفكرين أن آدم أبا البشر عليه السلام رمز الى ذلك المجتمع الانساني الأول • نحن هنا لا نناقش هذه الدعوى المحفوفة بالغيب ولكنا نشير اليها جملة لكي ننتقل الى تخيل كاتب لطفل انساني من بني نوعه تائه أو مقذوف في الطبيعة كيف يستطيع مغالبة المحيط الخارجي وحده مع ما قد يسعفه من رأم أنثى حيوان له •

رسالة حي بن يقظان رمزية • ويجوز في الرمز ما لا يمكن أن يتحقق في الواقع • ولكن قصة روبنسون كروزو تدعي الواقعية في أحداثها وأسلوب كتابتها • ويذكر الباحثون كما سلف في الأصول التي استقى منها ديفو روايته روبنسون كروزو قصة البحار ألكسندر سلكيرك كما مرّ آنفاً وقد وقع بينه وبين قبطان السفينة شجار فأنزله القبطان في احدى جزر خوان فيرننديث الخالية في المحيط الهادي على مقربة من ساحل تشيلي عام ١٧٠٥ مع صندوق فيه ملابس وفراش وبندقية وبارود ورصاص • ثم التقطه بعد أربع سنوات وأربعة شهور القبطان روجرز فوجده في حالة زرية جداً قريبة من حالة البهائم لا يكاد يبين ، يتلفظ بأنصاف الكلمات ، فكتب القبطان روجرز قصته ونشرها عام ١٧١٢ •

وقد ذكرنا قبلاً كلام أرسطو في حال الفرد الذي يعيش متوحشاً حتى أبعد منه صفة الانسان • وقد درس ناقد من نقاد الرواية الانكليز بامعان أدب ديفو وهو إيان واط وكتب منكراً على المؤلف دعوى نجاح روبنسون كروزو في مقامه بتلك الجزيرة الخالية •

ننقل ما ترجمه عنه السيد حسن محمود عباس في كتابه « حي بن يقظان وروبنسون كروزو » : « في الجزيرة المذكورة يحوّل روبنسون كروزو حالة العزلة الى النجاح • وهذا زيف فاضح • فالمنبوذون الآخرون ومنهم سلكيرك نموذج ديفو الرئيسي كانوا قد انحدروا الى حالة من البدائية التامة في غضون سنوات قليلة • لقد كانوا يتضاءلون بسبب تأثير البيئة والخوف المقلق الى مستوى الحيوانات • وفي بعض الحالات الموثوق بها كانوا يفقدون القدرة على

الكـــلام ، أو يصابـــون بالجنـــون ، أو يموتون جوعاً • وهناك كتاب لا بـــد أن ديفو كان قد قرأه وهو « رحلات وأسفارجي ألبـــرت دي ماندلســـو » يـــروي لنا حادثتين مماثلتين : الأولى حادثـــة الفرنسي الذي مـــزّق ثيابـــه اثر نوبـــة من نوبات الجنون جاءته في أعقاب وجبـــةغذاء من لحم ســـلحفاة نيء وذلك بعـــد عامين من اقامته في جزيرة موريشيوس • والثانية حادثة البحار الهولندي في جزيرة سانت هيلانة الذي أخرج جثة زميله من القبر واتجه الـــى البحـــر وهو يرتـــدي الكفـــن » •

ويعلق الباحث المترجم على ذلك : « أن ما ذكره واط يبين مدى الصعوبـــة التي كانت تواجه ديفو وهو يحاول وضع بطل روايته في جزيرة مهجورة لما يـــزيد على ثمانية وعشرين عاماً ثم يعيده بعـــدذلك الى الوطن مكتمل العقل والبدن ، بل ذا تجربة فريدة في غناهـــا • وهنـــا نرجح أن تكون قصة « حي بن يقظـــان » هي المثال الوحيد والنموذج الأمثل الذي حذا حذوه ديفـــو واستلهمـــه امكانيـــة النجاح ، خصوصاً أن « حي بن يقظان » كانت دون سواها من الأعمال الفكريـــة والأدبية تقدم تجربـــة متكاملة لانســـان عاش حيـــاة عزلة تامـــة وخرج بتجربـــة متكاملة فريدة في غناها ، كما تحقق لروبنسون كروزو من بعد » •

هذا فضلاً عن بعض التفاصيل في رواية روبنسون كروزو تتبّعها السيد عباس لبيان وجوه الشبه وأشكال التأثير الخفية مثل خلوّ القصتين من وجود المرأة بل من مجرد التفكير فيها ، ومن تصوير كل منهما لشخص هبط الجزيرة ومـــن تعليم أحدهما الآخر لغته التي يتكلم بها ، ومن أمور أخـــرى يستطيع القـــارىء أن يتأملها في مقارنة القصتـــين البديعتـــين اللتين كأكثر الطوباويات تجري أحداثهما في جزيرة نائية ، مبتعدة عن المجتمعـــات الانسانيـــة •

لقد تفتّق الخيال الانساني عن أساطير قديمة لا يعدم بعضها شبهاً بقصـــة « حي بن يقظان » مثل أسطورة الصنـــم والملك وابنته اذ عثر على تمثال عليـــه كتابة تروي سيرة صاحب التمثال • وهي أن والدته كانت ابنـــة ملك قوي جبـــار تعلقت بابن الوزير الأكبر وحملت منه فخشيت افتضاحها • فلما ولدته صنعت

له صندوقاً وضعته فيه وألقته في اليم • فحمله الموج حتى ألقاه على شاطىء جزيرة خصبة لم تطأها قدما انسان • فالتقطته ظبية وأرضعته ورئمته ونما الطفل وجعل يتدبر أمور معاشه ويتفكر في الحياة والكون ثم ساقت الظروف والده ابن الوزير الى الجزيرة ، فلقنه اللغة والمعارف ثم رجعا معاً الى الجزيرة المعمورة •

بل ان خيال الانسان تصور آلهة متعددة في أوهامه وجعل ابني الاله مارس وهما روميولوس وريموس في الأساطير الرومانية يُلقى بهما وهما طفلان في نهر تيبر بايطاليا ، فقذفهما الموج الى الضفة وأرضعتهما ذئبة حتى نموا ووجدهما راع ، ثم كبرا وشبّا عن الطوق ورغبا في أن يبنيا بلداً تخليداً لنجاتهما • وتنازعا وقتل روميولوس أخاه وشاد روما التي حملت اسمه وكان أول ملوكها !

ولم ينقطع خيال الانسان عن تصور الانسان الوحش حتى في العصر الحاضر . وفي حكايات « طرزان » تهاويل تصور حياته في الطبيعة مع الوحوش • ولكن ذلك كله في جانب ورسالة حي بن يقظان الفلسفية المتقنة في جانب آخر •

* * *

لا غرو لمثل ابن طفيل وقد بلغ شأواً في الطب والفلسفة ونضج المعرفة أن يكون مستهدفاً لسؤالات الطلاب والأتراب عن حقيقة الانسان وشأنه في الحياة وأصله ومصيره في الكون • والبحث في هذه الأمور من شأن كل فلسفة أصيلة •

أبو بكر بن طفيل فيلسوف وصل الى الصفاء واليقين • ولا عجب أن يكون معرضاً لمثل تلك التساؤلات • ولم يكن له في طور نضجه الروحي الا أن يبسط ثراءه الفكري ومعارفه المتنوعة في رسالة محبوكة العناصر محكمة البيان متزنة الأداء ، تارة بالعبارة وطوراً بالاشارة • وقد مهد لرسالته بأن سائلا صفياً حميماً سأله أن يبث اليه ما يمكنه من أسرار الحكمة المشرقية التي ذكرها الشيخ الرئيس أبو علي بن سينا • ويرى ابن طفيل « أن من أراد الحق الذي لا جمجمة فيه فعليه بطلبها والجد في اقتنائها » ، وينوّه بأن من وصل اليها وانتهى الى حد من حدودها لا يستطيع أن يكتم أمرها أو يخفي سرها بل يعتريه من

الطرب والنشاط والمرح والانبساط ما يحمله على البوح بها مجملة دون تفصيل • وذلك مبلغ هو من الغرابة بحيث لا يصفه لسان ولا يقوم به بيان • فان كان السؤال عما يراه أصحاب المشاهدة والأذواق والحضور في طور الولاية فهذا يتعذر اثباته على حقيقة أمره اذ هو حال من الكشف • ومع ذلك فقد يكتفي السائل بطلب التعريف بهذا الأمر على طريقة أهل النظر • وهذا شيء يحتمل أن توضع فيه الكتب وتتصرف به العبارات وهو أندر من الكبريت الأحمر •

ثم يعرض ابن طفيل في مقدمة رسالته أسماء بعض الفلاسفة ممن حاول اقتحام هذا الموضوع ولكن لم يصل الى مبتغاه ولا تهيأ له الكمال والاحكام بسبب من الأسباب ، يذكر منهم معاصره ومواطنه وسميه أبا بكر بن باجه الذي يعجب به ويشيد بكتابيه « في النفس » و « تدبير المتوحد » ، وأبا نصر الفارابي في «رسالة أهل المدينة الفاضلة» و « شرح كتاب الأخلاق » ، وأبا علي ابن سينا الذي تكفل بالتعبير عما في كتب أرسطو طاليس سالكاً طريق فلسفته في كتاب « الشفاء » ولكن كان أكثر احسانا في كتابه « الفلسفة المشرقية » ، كما يذكر أبا حامد الغزالي ويراه يتخذ في كتبه مواقف متفاوتة بحسب مخاطبته للجمهور • فهو يربط في موضع ويحل في آخر ، ويكفر بأشياء ثم ينتحلها ، وأكثر تعليمه رمز واشارة لا ينتفع بها الا من كان معداً لفهمها فائق الفطرة • ويرى ابن طفيل أن الشيخ أبا حامد ممن وصل تلك المواصل الشريفة ولكن كتبه المضنون بها المشتملة على علم المكاشفة لم تصل الى الأندلس • ويذكر ابن طفيل أنه مع ذلك هو نفسه استفاد من كتب أولئك الفلاسفة ومن الآراء التي نبغت في زمانه حتى استقام له الحق أولاً بطريق البحث والنظر ثم وجد الذوق اليسير بالمشاهدة فرأى نفسه أهلاً لكتابة الرسالة التي يتحف سائله بما عنده فيها • ثم انه يشير الى أنه يعتمد أسماء حي بن يقظان وأبسال وسلامان وقد ورد الاسم الأول عنوان قصة لابن سينا وورد الآخران في بعض كتبه الأخرى يعتمدها رموزاً دون مضامين ما تدل عليه في تلك الكتب لتقصير تلك المضامين عن الشأو المراد •

أما الشأو المراد فكما رأيت أيها القارىء الكريم آنفاً وأول الأمر هو بيان أسرار الحكمة المشرقية • وذلك أن علماء الاسلام ومفكريه قرروا أن السعادة



العظمى والمرتبة العليا للانسان هي معرفة الصانع بما له من صفات الكمال والتنزه عن النقصان بما صدر عنه من الآثار والأفعال في النشأة الأولى وفي الآخرة ، وبالجملة معرفة المبدأ والمعاد · والطريق الى هذه المعرفة من وجهين : أحدهما طريقة أهل النظر والاستدلال ،وثانيهما طريقة أهل الرياضة والمجاهدات · السالكون للطريقة الأولى ان التزموا ملة من ملل الأنبياء عليهم السلام فهم المتكلمون ، والا فهم الحكماء المشاؤون أصحاب النزعة العقلية الجارون على نسق فلسفة أرسطو ·

والسالكون للطريقة الثانية ان وافقوا في رياضتهم ومجاهداتهم أحكام الشرع فهم الصوفية ، والا فهم أهل الحكمة المشرقية أو الحكماء الاشراقيون .

وهكذا تكون الحكمة المشرقية أو حكمة الاشراق من الفلسفة بمنزلة التصوف من العلوم الاسلامية ، كما أن الحكمة الطبيعية الالهية منها بمنزلة علم الكلام من تلك العلوم الاسلامية ·

أراد ابن طفيل أن يجعل حي بن يقظان وهو متوحد في الجزيرة يسلك طريقة أهل النظر والاستدلال شيئاً فشيئاً ويترقى بقوته النظرية حتى يبلغ أعلى مرتبة فيها · ثم يشعر بقصورها بعض الشيء فيجعله المؤلف يسلك طريقة أهل الرياضة والمجاهدات ليشاهد ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ويدرك «أن ليس ثم شيء الا ذات الحق وأن ذلك بمنزلة نور الشمس الذي يقع على الأجسام الكثيفة فتراه يظهر فيها »ويعلم أن ذلك من قبيل التشبيه وأن ما وصل اليه يعجز اللسان والبيان عن وصفه وايضاحه · ثم ينظر الى جميع الأشياء والكائنات في اشراق نور الحق ·

وفي هذا غاية الفلسفة الصحيحة · ثم يشوّق المؤلف القارىء بما يسوقه من مزايا الفطرة السليمة ونقاوة الضمير وحب الخير لجميع الكائنات ومن بلوغ أعلى درجات الغبطة والسعادة في هذا السبيل ، ليعرّج بعد ذلك على ما في المجتمع الانساني من زيف وغرور وضلال ومن تهافت على جمع المال وحرص على المآرب الفردية والشهوات الشخصية · وذلك بجمل وألفاظ يستمدها من الشريعة لينقد غالبية أحوال الناس المتدينين الذين لم يتفهموا غاية الملة الحنيفية

ولم يستجيبوا لنداء القيم الرفيعة . بل ان الذي وصل بسلامة فطرته وطيب سريرته الى ما وصل اليه حيّ ويدري أسرار الدين وغايته وفحوى الحكمة حقيق أن يسبغ عليه صفة الولاية كما يتصورها علماء الدين .

عددنا آنفاً « حي بن يقظان » في الطوباويات الفكرية التي تقصد الى صلاح الفرد والمجتمع . انها طوباوية الفرد المتوحد الى جانب الطوباويات الاجتماعية المتعددة . ومن الطبيعي في تاريخ الفكر أن تبتعث تلك الطوباويات التي تتصدر الاصلاح وتتلألأ بالأمل نقائض لها وأضداداً . فينهض مؤلفون مرموقون ينقمون ما في المجتمعات من تقدم ماديّ هائل الى جانب التعسف والتحكم والطغيان فيصورون تطور هذه المجتمعات في المستقبل الى نظم جماعية محكمة الاعداد يسخرون منها باسمين أو حانقين .

هل نذكر في العصور الحديثة التي طغى فيها الاتجاه المادي واتسعت سيطرة الحكومات الصارمة كتاب « العالم الطريف » أشهر مؤلفات الكاتب الانكليزي ألدوس هكسلي (١٨٩٤ ـ ١٩٦٣) الذي نشره عام ١٩٣٢ .

هو يوتوبيا مستقبلية تقنية متشائمة . فهو اذن يوتوبيا عكسية أو مضادة . يخاف المؤلف على حياة الناس في المستقبل من سيطرة العلم في عالم جديد هو عالم العقاقير والآلات يزول فيه الأدب والشعر والفن والدين . كل شيء فيه آلي مخطط له ومرسوم أو محفوظ في قوارير . لا حاجة الى الزواج للنسل لأن الأجنة تتكون في القوارير بطريقة علمية لا في الأرحام . والأطفال الناشئة طبقات يُعدُّ تكوينهم بمقتضى الحاجة اعداداً دقيقاً حسب كميات الاكسجين التي تبذل لكل طبقة . هو عالم ينكر الفردية . شعاره الجماعة والتشابه والاستقرار . يكفي فيه أن تضغط على زر أو تدير مقبضاً لكي تنال ما تريد . الكتاب في شكل رواية ينقد حياة الانسان الحديثة. وهو سلبي يهدم ولا يبني .

أم نذكر كتاب « ١٩٨٤ » للمؤلف الانكليزي جورج أورويل (١٩٠٨ ـ ١٩٥٠) نشره عام ١٩٤٩ وهو أشد اكتئاباً من « العالم الطريف » ، شعارات العالم المقبل عنده ثلاثة . وهي من الغرائب ولكنها شعارات العالم المقبل : الحرب هي السلم . والحرية هي العبودية . والجهل هو القوة .

فالكتاب نقد مرير ولاذع وساخر أي ساخر لنظام الحكم المطلق وللسيطرة السياسية الصارمة التي تتحكم في جميع مظاهر الأمة وطاقاتها المنتجة .

لم يكن لنا بد في سياق حديثنا عن طوباوية ابن طفيل من أن نستطرد هذا الاستطراد الذي يبرز عبقرية ابن طفيل حين يلح في رسالته على سلامة الفطرة وحرية الفكر . بيد أن ثمة شؤوناً أخرى تزيد في ابراز قيمة هذه الرسالة .

* * *

عاش ابن طفيل في صدر دولة الموحدين كما سلف في باكورة هذا الحديث . دولة الموحدين قامت على أنقاض دولة المرابطين . أنشأها أبو عبدالله بن تومرت عام ١١٢٨/٥١٥ وهو من قبائل المصمودة البربرية. ولما توفي عام ١١٣٠/٥٢٤؟ تلاه على رأس المصامدة صاحبه القائد المخلص عبدالمؤمن بن علي الكومي . وكومة قبيلة بربرية . أو هو من نسل قيس عيلان بن مضر وولد في قبيلة كومة كما كان يقول . وتلاه أبناؤه وخلفاؤهم حتى سنة ١٢٦٩/٦٦٨ . فاستمرت الدولة في الحكم منذ زمن عبدالمؤمن الى نهايتها نحو مائة وخمسين سنة .

ومن أهم ملوكها الذين كانوا يتسمّون بأمراء المؤمنين أبو يعقوب يوسف الأول بن عبد المؤمن الذي عاش ابن طفيل في كنفه وبلاطه طبيباً ووزيراً ونديماً ومستشاراً .

كانت أحوال الأندلس بعد سقوط دولة المرابطين مختلة اختلالا مفرطاً . قام أعيان الجزيرة فاستبد كل منهم بضبط بلده . وكانت الجلالقة تتحين فرص ضعف المسلمين وتواكلهم وتنازعهم وتخاذلهم لانتزاع أطراف البلاد المجاورة لهم شيئاً فشيئاً . وكان عبدالمؤمن قد أرسل عام ١١٤٣/٥٣٨ الى الأندلس جيشاً سيطر به في غضون خمس سنوات على الممالك التي كانت بأيدي العرب . ثم اتجه نحو الشرق وبسط نفوذه على سواحل افريقية الممتدة من حدود مصر الى المحيط الأطلسي .

وكانت نشأت في الأندلس من قبل حضارة عربية اسلامية ازدهرت وازدهت وقل مثيلها جعلت اسبانيا في طليعة بلاد المعمورة عامة والبلاد الأوربية خاصة .

فقد احتفر العرب قنوات الري ودعموا الزراعة والاقتصاد وعملوا على تمتين أنواع الصناعة المتاحة في ذلك العصر ونشطوا العلوم بجميع أصنافها وحفزوا الناس من جميع النحل والطبقات على ورود مناهلها المترعة العذبة ، كما احتفلوا خاصة بالهندسة والعمارة والفلك الى جانب الفنون · كانت الأندلس تتلألأ أضواؤها الفريدة فتصل سناها الى قصي الجهات وتبلغ أخبارها بعيد الأماكن · وليس غريباً أن يُسحر أبناؤها بما بلغته من جمال ورفعة وطيب عيش ورغد حياة · يقول ابن خفاجة ٤٥٠/١٠٥٨ ـ ٥٣٣/١١٣٨ يخاطب أهلها بهذه الأبيات :

يا أهل أندلس لله دركُم ... ماء وظل وأنهار وأشجار

ما جنة الخلد الا في دياركم ... ولو تخيّرت هذي كنت أختار

لا تختشوا بعدها أن تدخلوا سقراً ... فليس تدخل بعد الجنة النار

ولكن هذه الجنة مال سكانها الى النعيم وأخلدوا الى الترف وركنوا الى التخاذل ثم تبع ذلك التنازع والشقاق والاستئثار وقلة النسل على حين كان الجلالقة يتمتعون بذلك النعيم ويتعلمون الصنائع المدنية والعسكرية ويتكاثرون بسبب مستواهم الثقافي والمعاشي الذي كان أدنى من مستوى المسلمين كذلك تسرّب خلل وتشتت في آراء العلماء الذين كانوا يتقربون من الولاة والملوك ويوحون إليهم باتجاهاتهم الدينية وبتضييق الأمر على غيرهم · لقد عمل المرابطون على إذاعة مذهب الامام مالك في البلاد ، وجاء الموحدون فعملوا على محو مذهب مالك وإزالته من المغرب مرة واحدة واهتموا حيناً بعلم الكلام ، ثم اتجه الاهتمام نحو الاقتصار على الأخذ بالكتاب والسنة والابتعاد عن علم الفروع جملة نظراً لتعدد المسائل وتشعبها · وبعد تقريب العلماء والفلاسفة في زمن أبي يعقوب يوسف الأول تغير الأمر في زمن خلفه أبي يوسف يعقوب الذي تولى الحكم بين ٥٨٠/١١٤٨ و ٥٩٥/١١٩٩ فتنكر للفلاسفة ولأهل الرأي ووقعت في زمنه محنة ابن رشد إذ أبعد من قرطبة شر إبعاد بل أمر الملك باحراق كتب الفلسفة كلها إلا ما كان من الطب والحساب وعلم الهيئة · هذا كله الى زيادة قوة الجلالقة وتربصهم ببلاد الأندلس · لقد كانت جيوش الفرنجة تتألف من بعض المسلمين ، وكانت جيوش المسلمين تتألف من بعض الفرنجة · فلم



يكن هنالك إلا منافع فردية عاجلة ولهاث وراء المال والذهب وحرص على التمتع بأسباب الرفاهية والمدنية • وكان اليهود يمالئون المسلمين لأن هؤلاء كانوا حماتهم ومعلميهم •

يقول المراكشي في كتاب «المعجب»: « إنما اليهود عندنا يظهرون الاسلام ويصلون في المساجد ويقرئون أولادهم القرآن جارين على ملتنا وسنتنا والله أعلم بما تكنه صدورهم وتحويه بيوتهم» (ص ٣٠٥) • في هذه الآفاق المزدحمة بالتناقضات نحسب أن ابن طفيل وقف يتأمل الخلاف بين الدول وبين الحكومات وبين الناس أنفسهم الذين لم يفهموا أسرار الدين الحقيقية سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين أو يهوداً ، ولم يتفطنوا الى ما قد يكون بينهم من روابط تدفعهم الى تأمل الحياة والطبيعة والموت والكون والى ما يتجاوز ذلك كله من آفاق الرفعة وبشائر السمو وملكوت التقديس ، ورأى أن الموعظ لا يفيد وأن النصح مردود وأن طريق الاصلاح مسدود فعمد الى أول الطرق وأكثرها أصالة وأعمقها أثراً وهو الاهابة بفطرة الانسان السليمة وبسريرته الانسانية الصافية التي لم تكدرها الأوهام ولم يصبها دنس المجتمع فنهد الى كتابة رسالته تلك •

أبرز ما في الرسالة حب واجب الوجود مع الغبطة الكبرى في هذا الحب ثم إسباغ المحبة والعطف والوفاء على جميع المخلوقات • فالظبية تعطف على الوليد وهو يقابلها بالعرفان حين كَبِر هو وأسنّت • ثم إن حياً «قد ألزم نفسه ألاّ يرى ذا حاجة أو عاهة أو مضرة أو ذا عائق من الحيوان أو النبات وهو يقدر على إزالتها عنه إلا ويزيلها • فمتى وقع بصره على نبات قد حجبه عن الشمس حاجب أو تعلق به نبات آخر يؤذيه أو عطش عطشاً يكاد يفسده أزال عنه ذلك الحاجب إن كان مما يزال ، وفصل بينه وبين ذلك المؤذي بفاصل لا يضر المؤذي ، وتعهده بالسقي ما أمكنه • ومتى وقع بصره على حيوان قد أرهقه ضبع أو نشب به ناشب أو تعلق به شوك أو سقط في عينيه أو أذنيه شيء يؤذيه أو مسّه ظمأ أو جوع تكفّل بازالة ذلك كله عنه جهده وأطعمه وأسقاه • ومتى وقع بصره على ماء يسيل الى سقي نبات أو حيوان وقد عاقه عن ممره ذلك عائق من حجر سقط فيه جُرف انهار عليه أزال ذلك كله عنه » •

وهو في ذلك يعتني بنفسه • فمحبة النفس جزء من المحبة الشاملة فقد « ألزم نفسه دوام الطهارة وإزالة الدنس والرجس عن جسمه والاغتسال بالماء في أكثر الأوقات وتنظيف ما كان من أظفاره وأسنانه ومغابن بدنه وتطييبها ما أمكنه من طيب النبات وصنوف الأدهان العطرة، وتعهد لباسه بالتنظيف والتطييب حتى كان يتلألأ حسناً وجمالاً ونظافة وطيباً» •

* * *

كل فيلسوف ذو نهج فكري خاص به وبثقافته ومتأثر بملامح عصره • ويكاد أسلوبه في الكتابة يشف عن ذلك المنهج سهولة أو وعورة ، وضوحاً أو غموضاً ، هدوءاً أو استعجالاً • وفلسفة ابن طفيل ورسالته تطلع القارىء على الوصول السعيد بعد العنت والصبر والمراس ، كما تصف النضج والقلق في جوف الاطمئنان • إنها دوحة نشأت من الأرض وتغلبت على شتى العقبات ، وسمت بالملاحظة والقياس والتجربة ،وتفتحت أذهانها في صيف النضج على اليقين والانشراح مستندة الى ما في الفطرة السليمة من سداد والى ما في الشريعة من صحة ورشاد والى ما في الحكمة والتصوف من رفعة وعلو وقوة • إنها مغامرة الانسانية الرشيدة التي تقبل جانباً من الواقع وتحاول أن تبني جانباً آخر أعمق وأصل ، وهي توضح ضروب المساعي الانسانية وتنكر الباطل وتنشر المحبة والعطف وتحث في عالم مادي متنازع على تجاوز الأثرة والأهواء والميول والنزعات المادية وتحض على الأخلاق الحميدة وعلى بلوغ غبطة التأمل الحكيم وسعادة الذات الانسانية الشريفة التي تتميز بالخير والفوز والبركة • وهي تحييّ في سبيل سعادة الانسان فطرته السليمة وحسن تشوفه نحو القيم الرفيعة •

رسالة حي بن يقظان لؤلؤة من أجمل لآليء الفكر العربي الاسلامي • هي سمفونية فلسفية إشراقية صوفية إصلاحية نفسية اجتماعية يعزفها مؤلفها أو قارئها على شكل حكاية بارعة رائعة •• إنها تلخص حسب ظن المؤلف أصل الانسان وإن كانت تهمل النظر في تسلسل مراتب المخلوقات في النشوء والتطور كما فعل مثلاً بعده ابن خلدون• وهي تسجل تاريخ المعرفة الانسانية وتتبين مراحل هذه المعرفة المتئدة المستندة الى النظر والمشاهدة والقياس والتجربة والاستنباط والفكر ثم الحدس العلوي ، وإن كان ينقص هذه المعرفة



أثر اللغة والأثر الاجتماعي . إنهـا كماسلف في تلخيص الرسالـة تنوّه بأحداث الحياة والموت وتشيد ببعض مزايا خَلْق الانسان كالانتباه لشأن يـد الانسان في الذكاء الانساني ولشأو طاقـة النار في تحقيق شتى مآربه الضرورية ، كما تنوّه بطلاقة الفكر الحر الذي لا حدود له .كل ذلك ببيان راقٍ ورائق يتعادل فيـه المبنى والمعنى ويتساوق اللفظ والفكـر وتجري الحوادث بتقـدم منطقي مطّرد وراسخ وتوقل سامٍ ودقيق وإحاطة ذكية وشاملة . ومثل هذه الرسالـة كاف لأن تبوىء صاحبهـا وأمثـاله أعلى درجـات الفكر العالمي .

بل يمكن أيضاً النظر الى الرسالة على أنها رمز الى النوع الانساني وسؤاله لنفسه : ما أنا ؟ من أين أتيت ؟ ما شأني في الحياة ؟ ما الغاية ؟ ما المصير ؟ وكيف العمل على بلوغ السعادة ؟.

وهي في ذلك تبدو سناً حلواً ناعمـاً نتلمحه حالمـين في عصـر ازدحمت فيـه الحاجات ، وتنازعت المآرب ، وتضاربت المصالـح ، وضاقت في سبلها المساعي ، واستفحل شأن المال ، واشتد ظلام المادة .

ابن طفيل ـ فوق نثره الفلسفي الدقيق الطلّي ـ شاعر رقيق مبدع كمـا أشرنا الى ذلك في ريّق البحث وبدايته .أوليس لنا أن نحاول الاقتداء به فنأتي في الختام بأبيات مناسبة :

تنـازع النـاس في دنياهـمُ وغـدا ... مسعاهـم لاقتنـاص المـال والنشب
تخاصموا في انتهاب العيش واقتتلوا ... وكلهـم سـائـر يومـاً الـى العطب
لو خُيّرَ النـاس في مـالٍ وفي أدب ... لكنت أختـار كنـز العـلـم والأدب
حيّ بن يقظان ان حقّقْتَ في عمل ... رأيـت رتبتهـا في منتهـى الرتب
منـاقبٌ أبدعَـتْ تدبيـج آبـدة ... بريقهـا جـاوز الأحقـاب كالشهب
وفي العلـوم كنـوز كلهـا نِعَـمُ ... أسـنى من النفط والدولار والذهب
كم من أوابـد أخـرى لا عداد لهـا ... تزداد وهجـاً لدى التنقيب والتعـب
تنوّرتهـا عقـول الغـرب عن بُعُدٍ ... وأثبتتهـا عقـول العُرْبِ من كثب
أطـل حيـاتـك في عـلم وفي كتبٍ ... فـلا حيـاة بغير العـلم والكتـب
مـلاوة في ضيـاء الفكر لو قَصُرَتْ ... تبـدو لعينـي في الآمـاد كالحقـب
مـال الزمـان بنـا لكـن نُعَدِّلُه ... بالعـلم والجـد والاتقـان والنصب
لا يدفـع الحيف عنـا غير وحدتنـا ... أقوى من الدهـر جلّت وحدة العرب